دراسات قرآنية

تأليف

عبد المتعال الصعيدي

الأستاذ بكلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر

مطبعة الاعتماد بمصر ٥ : ٧٥٣٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ ، الرحمانِ الرحيمِ ، مالكِ يومِ الدينِ ، إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ ، إهدنا الصراطَ المستقيمَ صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهمْ غيرِ المغضوبِ عليهمْ ولا الضالينَ

وبعد فقد كانت لى بحوث فى مواضع مشكلة من القرآن الكريم ، وَجهت بها ما أشكل منها توجيهات جديدة توضِّح مشكلها ، وتقرِّب أمره لمن أشكل عليهم ، على هدى ما وصلت إليه عقول أهل عصرنا من الاستنارة ، وما صارت إليه ثقافتهم من التهذيب . فلا تقبل فى حَلِّ مشكل دينى أو على أسطورة من الأساطير ، وإنما سبيلها إلى هذا حقائق العلم لا غير ، لأن الدين والعلم أخوان ، إذ يتعاونان معا فى محاربة الجهل على اختلاف صوره وأشكاله ، من جهل دينى ، إلى جهل علمى ، إلى غيرهما من أنواع الجهل ، فلا يمكن أن يقبلا فى حل مشكلة من مشاكلهما حلا فيه شائبة جهل .

وقد أردت جمعها فى كتاب بهذا الاسم — دراسات قرآنية — ليطلع الناس على ما فيها من توجيهات جديدة فى حل هذه المشاكل منتظمة فى كتاب واحد ، متآلفة فيما تفيده من ثقافات قرآنية جديدة ، والله أسأل كمال النفع به ، كما نفع بنظائر له من كتبى قبله ؟

٢٨ من رمضان سنة ١٣٧٨ هـ
٦ من أبريل سنة ١٩٥٩ م

لقمان الحكيم

هو بلعام بن باعورا

قد يبدو غريبا أن يكون لقمان الحكيم هو بلعام بن باعورا ، لأن لقمان قد نوَّه القرآن بحكمته ، وأنزل فيها سورة تشتمل على بعض منها ، للايذان بأنه لامنافاة بين الدِّين والحكمة ، وهذا فى الآيات — ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ — من سوره لقمان (ولقدْ آتينا لقمانَ الحكمةَ أنِ اشكرْ لله ومن يشكرْ فإنَّما يشكرُ لنفسهِ ومَنْ كفر فإن اللهَ غنىٌّ حميدٌ) الآيات

أما بلعام فقد حمل عليه جمهور المفسرين قوله تعالى فى الآيات — ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ — من سورة الأعراف (واتلُ عليهمْ نبأَ الذى آتيناه آياتِنافانسلخَ منها فأتبعهُ الشيطانُ فكانَ مِنَ الغاوينَ ، ولوْ شئنا لرفعناهُ بها ولكنهُ أخلدَ إلى الأرضَ واتبعَ هواهُ فمثلهُ كمثلِ الكلبِ إنْ تحملْ عليه يلهثْ أوْ تتركْهُ يلهثْ ذلكَ مثلُ القومِ الذينَ كذبوُا بآياتنا فاقصصِ القصصَ لعلهمْ يتفكرونَ ، ساء مثلاً القومُ الذينَ كذَّبوا وأنفسهمْ كانوُا يظلمونَ)

وأبادر فأقول إن ماذكرته من أن لقمان الحكيم هو بلعام بن باعورا

ليس رأيا جديدا لى ، وإنما هو رأى للدكتور — ج درانبورج — أحد أعضاء الجمعية الشرقية بمدينة باريس ، وقد استدل على هذا بأن الأسماء المشهورة الواردة فى التوراة وذكر معظمها فى القرآن على ما وردت عليه فيها ينقصها اسم بلعام بن باعورا ، فليس هو إلا لقمان بن باعورا الوارد فى القرآن ، ويؤيد هذا اتفاق اسم الأب فيهما ، وأن الفعل العربى — لَقَمَ — معناه باللسان العبرى — بَلَعَ — وهذا إلى أنه يوجد فى كتاب صغير لمؤلف يسمى — أنوخ — مايؤخذ منه أن دلالة هذين الاسمين على شخص واحد كان معروفا قديما ، فقد جاء فيه أن بلعام هو الفيلسوف المسمى فى العربية لقنين ، يعنى — لقمان — وإنما أوقعه فى هذا التحريف بعده عن العربية ، لأنه لم يكن من أهلها .

وكان بلعام بن باعورا معروفا عند اليهود بأنه فيلسوف الشعب الكافر ، وكانوا يذهبون إلى أنه لم يكن يوجد فى الدنيا فلاسفة مثله ، وقصته فى التوراة أن بنى إسرائيل لمّا ارتحلوا إلى موآب ليحاربوا أهلها اجتمع شيوخها وأرسلوا إلى بلعام ليلعن هذا الشعب — بنى إسرائيل — الذى يغير على بلاده ، فقال له الرب — لا تلعن هذا الشعب لأنه مبارك — ولكنهم ألحّوا عليه فى ذلك حتى أذن له الرب أن يذهب معهم ، على ألاّ يتكلمَ إلا بما يأمره به ، فركب حماره ، وغضب الرب لذهابه (١) فأرسل له مَلاَكا فى الطريق ، وفى يده سيف مسلول ،

(١) كيف يأذن له فى الذهاب معهم ثم يغضب بعد هذا منه ؟

فلما أبصره حماره وقف ، وكشف الله عن عينه فرأى الملَك متعرضا فى طريقه . فأراد أن يرجع ، ولكن الملك سمح له أن يذهب معهم على ألاّ يفعلَ إلا ماأمر به ، فلما وصل إلى مكان يرى منه شعب إسرائيل ظهر له الرب وأمره ألاّ يلعنَه ، فذهبوا به إلى مكان آخر لعل الرب يظهر ويغير أمره ، فلم يأذن له فى لعنهم ، فتركهم ورجع إلى مكانه الذى كان فيه .

ولما استولى موسى وقومه على بلاد موآب قتلوه مع كل ذكر فيها ، وأسروا النساء والأطفال ، فغضب موسى لأنهم لم يقتلوا النساء والأطفال كما قتلوا الذكور ، وقتل كل طفل فى موآب ، وقتل أيضا كل امرأة ثيّب .

وهذا هو ماذكرته التوراة الموجودة الآن بأيدى اليهود عن بلعام ابن باعورا ، فلما وصلت قصته إلى مفسرى القرآن من الأوّلين حمل جمهورهم عليه الآيات السابقة فى سورة الأعراف ، وجعلوا قصة الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها هى قصة بلعام بن باعورا ، ولكنهم غيروا قليلا فيها ، لأن التوراة ليس فيها أن بلعام دعا على موسى وقومه ، بل ظاهرها أنه لم يدع عليهم ، أما رواية المفسرين فتنص على أنه أجاب قومه فدعا على موسى وقومه ، فوقعوا بسبب دعوته فى التّيه ، فقال

موسى : يارب ، بأى ذنب وقعنا في التيه ؟ فقال : بدعاء بلعام . فقال موسى : كما سمعت دعاءه فاسمع دعائى عليه . فدعا موسى أن ينتزع منه الإيمان ، فسلخه الله مما كان عليه . ولعلهم زادوا هذا على رواية التوراة ليسوّغوا بهذا قتل موسى له فيمن قتله من ذكور موآب ، لأن رواية التوراة من غير هذه الزيادة تجعل قتله إثما كبيرا لا يقع فيه موسى مع رجل آتاه الله آياته ، فطلب منه قومه أن يدعو على موسى وقومه فأبى ، فلما ألحوا عليه أن يخرج معهم — ولا بدّ أنهم استعملوا معه وسائل الإكراه — استأذن الله أن يخرج معهم فأذن له ، وشرط عليه ألاّ يتكلم إلا بما أمره به فوفى بشرطه ، فكيف يقتله موسى بعد هذا ؟ اللهم إلا أن يكون قتل فيمن قتل عند استيلائهم على المدينة ، فلم يكن فيمن أسر وقتل بعد الأسر ، وقد يجوز هذا إذا كان موسى لم يعلم بحقيقة أمره ، ولكنه بعيد جدا .

ومما هو ضعيف أيضا مازاده المفسرون على رواية التوراة من أنه دعا الله على قوم موسى فوقعوا فى التّيه ، وأن موسى دعا الله أن ينزع منه الإيمان فسلخه الله مما كان عليه ، فإن وقوع قوم موسى فى التيه كان كما نص عليه القرآن فى سورة المائدة بسبب عصيانهم لأمره لهم بدخول الأرض المقدّسة ، وهذا هو السبب المعقول لوقوعهم فى التيه ، ولا يصح

أن يقعوا فيه بدعاء ظالم من بلعام عليهم إن صح ، كما لا يصح من موسى أن يدعو الله أن يسلب من بلعام الإيمان فيسلبه منه ، وهذا إلى أنه إن صح أنه دعا على موسى وقومه بعد ظهور الملَك له ونهيه عن الدعاء عليهم فإنه يكون قد سلب الإيمان بهذا قبل دعاء موسى ، فيكون دعاؤه بسلبه منه تحصيلا للحاصل .

ويمكننا أن نخرج من هذا بأنه ليس فى التوراة نص صريح فى أن الله تعالى قد سلب من بلعام ما آتاه الله من آياته ، ولا يهمُّنا بعد هذا ما اشتهر به عند اليهود من أنه فيلسوف الشعب الكافر ، لأن اليهود قد افتروا على غيره من أنبيائهم ، على أن الظاهر أن كلمة الكافر فى هذا وصف لشعب موآب لا لبلعام ، لأن ذكره بوصف الفيلسوف ينأى عنه ، وبهذا لا يكون هناك سند صحيح لجمهور المفسرين الذين حملوا آيات الأعراف السابقة على بلعام بن باعورا ، لأنهم لا سند لهم فى هذا إلا نص التوراة السابق ، وليس فيه ما يؤيد دعواهم أن بلعام دعا على موسى وقومه فسلب الله الإيمان منه ، بل إن التوراة نصت بعد هذا على أن بلعام قال لبلاق بن صفور مَلِك موآب بعد أن ظهر الملَك له ونهاه عن لعن موسى وقومه : قم يا بالاق واسمع ، فليس الله إنسانا فيكذب ، ولا ابن إنسان فيندم ، وهل يعدُ ولا يفى ؟ ثم أخبره بأن موسى وقومه

سيملكون بلاده ، ولاشك أنه بعد هذا يكون الأقرب أن قتل بلعام إن صح كان من قومه لا من موسى وقومه ، لأنه خرج عليهم ولم يطاوعهم فى لعن أعدائهم ، بل أنذرهم بأنهم سيملكونهم .

على أننا بعد هذا سننظر فى أمر لقمان الحكيم عند المفسرين ، هل هم على بيّنة من أمره حتى نستريح إلى ما ذهبوا إليه من أنه غير بلعام ابن باعورا ؟ ثم ننظر بعد هذا فيما تحمل عليه آيات الأعراف السابقة إذا لم نسترح إلى ماعندهم فى أمر لقمان ، ولم نجد إلا أن نرجح ماذهب إليه الدكتور — ج : درانبورج — من أنه هو بلعام بن باعورا .

فإذا نظرنا فى أمر لقمان عند المفسرين وجدناهم مضطربين فيه اضطرابا عظيما ، فمن قائل إنه لقمان بن باعورا ابن أخت أيوب أو خالته ، ومن قائل إنه من أولاد آزر أب إبراهيم عليه السلام ، وأنه عاش ألف سنة ، وأدرك داود عليه السلام ، ومن قائل إنه كان قاضيا من قضاة بنى إسرائيل ، ومن قائل إنه كان أسود من سودان مصر . ثم اختلفوا بعد هذا فى أنه كان خياطا أو نجارا أو راعيا ، وفى أنه كان نبيا أو حكيما غير نبى ، وقد شك الألوسى المفسر فى صحة هذه الروايات كلها فى أمر لقمان الحكيم ، ولكنه لم يذكر رأيا واضحاً فى أمره ، وبهذا يكون المفسرون على غير بينة فى أمر لقمان الحكيم الذى اشتهر عند العرب قبل الإسلام ، ولم يعرفه غيرهم بهذا الاسم، مع أن الروايات السابقة

لا تنسبه إلى العرب ، فكيف يكون مشهورا بهذا الاسم عندهم ولا يكون مشهورا به عند غيرهم ممن ينسبونه إليهم ؟

وإذا نظرنا إلى آيات الأعراف السابقة وجدنا أنه ليس فيها مايعيّن حملها على بلعام بن باعورا ، بل وجدنا أن من ذهب إلى حملها عليه لم يكن على بيّنة من أمره ، كما لم يكن على بينة من أمر لقمان الحكيم ، فقد ذهبت الظنون بهم فيه أيضا كل مذهب ، حتى قال بعضهم إنه كان نبيا ، وقال آخرون إنه كان من أهل اليمن ، ثم ادّعوا أنه كان يعرف اسم الله الأعظم الذى لايدعو داع به إلا استجيب له ، إلى غير هذا من الأساطير التى لاسند لها من التاريخ الصحيح ، ولا يقبلها العقل السليم ، فيكون حمل تلك الآيات عليه حملا على مجهول لاتستريح النفس له .

وقد ذهب ابن عمر إلى أن تلك الآيات نزلت فى أميّة بن أبى الصلْت ، كان على علم بكتب الله من التوراة والإنجيل وغيرهما وآياتها ، وكان يرجو أن يكون هو النبى الذى سيبعث من العرب ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حسده ومات كافرا . وقيل إنها نزلت فى أبى عامر الراهب ، وكان يعادى المسلمين أيضا ، وقيل إنها مَثَل لكل من يعرف الهدى ويعرض عنه ، وهذا أرجح عندى من غيره .

وحينئذ لا يكون أمامنا إلا أن نحمل آيات الأعراف السابقة على غير بلعام بن باعورا ، وإلا أن نرجح ماذهب إليه الدكتور — ج : درانبورج — من أن لقمان الحكيم هو بلعام بن باعورا ، لأنا مطالبون أمام العلم والتاريخ ببيان ذلك الاسم الذى ورد فى القرآن الكريم واشتهر بحكمته عند العرب مع أنه لم يكن منهم ، ولم يرد له ذكر عند غيرهم ، فليكن هو بلعام بن باعورا كما ذهب إليه الدكتور — ج : درانبورج — ولا شىء علينا فى أن نرجح رأيه على رأى أولئك المفسرين ، لأن الحكمة ضالة المؤمن يطلبها أنى وجدها . والحق يعرف بنفسه قبل أن يعرف بقائله ؟

رحلتا قريش للتجارة

فى القرآن والشعر الجاهلى

وردت فى القرآن الكريم سورة قصيرة باسم سورة قريش، ولكنها إذا كانت قصيرة المبنى فهى غزيرة المعنى، وقد وردت فى رحلتى قريش للتجارة، وهما رحلتا الشتاء والصيف، فكانت آياتها القصيرة فيهما من عجائب القرآن التى لا تنفد على كرّ الدهور، لأنه نظر فيهما نظرة جديدة تلائم رسالة الاسلام الجديدة فى بلاد العرب خاصّةً، وفى بلاد العالم عامّة، وتخالف فيهما نظرة الشعر الجاهلى الذى كان يعدُّ لسان العرب فى الجاهلية، ولكنه كان لسانا رجعيا جامدا، يقف على أطلال الماضى البغيض موقف الحانى عليه، المحافظ على آثاره وتقاليده، ولو بقى بهم فى تلك الفوضى التى لم يكن يعلم عاقبتها إلا الله تعالى، وهذه هى سورة قريش :

(لإيلافِ قريش، إيلافهم رحلةَ الشتاءِ والصيف، فليعبدُوا ربَّ هذا البيت، الّذى أطعمهمْ مِنْ جوعٍ وآمنهمْ مِنْ خوف).

فأما رحلة الشتاء فكانت من مكة إلى اليمن، وأما رحلة الصيف فكانت من مكة إلى الشام، وإنما خصوا اليمن برحلة الشتاء وخصوا

الشام برحلة الصيف لأن اليمن أدفأ من الشام ، فآثروا كلا منهما بالرحلة التى تناسبه ، وسبب تينك الرحلتين فيما روى عطاء عن ابن عباس أن قريشا كانوا إذا أصابهم مخمصة خرج الواحد منهم هو وعياله إذا اشتدت عليهم إلى موضع خارج مكة ، فضربوا خباء على أنفسهم حتى يموتوا ، ومكثوا على هذا إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف الجد الثانى للنبى صلى الله عليه وسلم ، وكان سيد قومه ، مطاعا فيهم ، حريصا على مصلحتهم، وكان له ابن يسمى أسدا ، وله ترب من بنى مخزوم — بطن من قريش — يحبه ويلعب معه ، فشكا إليه الضر والمجاعة ، فدخل أسد على أمه وهو يبكى ، وأخبرها بأمر تربه من بنى مخزوم وأمر أسرته ، وشكا لها ما هم فيه من مجاعة ، فأرسلت إليهم بدقيق وشحم ، فأكلوا منه حتى نفد ، فجاءه تربه إليه يشكو الجوع مرة ثانية ، فأرسلت أمه إليهم مثل ما أرسلت فى المرة الأولى .

ولما اشتدت المجاعة على قريش جمعهم هاشم بن عبدمناف للتشاور معهم فى أمرها ، حتى يهتدوا إلى طريق الخلاص منها ، ثم قام فيهم خطيبا بعد اجتماعهم فقال :

« إنكم أجدبتم جدبا تقلّون فيه وتذلّون ، وأنتم أهل حرم الله ، وأشراف ولد آدم ، والناس لكم تبع » .

فقالوا له : نحن تبع لك ، فليس عليك منا خلاف .

فجمع كل بنى أب على الرحلتين السابقتين ، فكانوا يذهبون إليهما للتجارات ، فما ربح الفتى قسمه بينه و بين الفقير من قومه ، حتى صار فقيرهم كغنيهم ، وقدجاء الإسلام وهم على ذلك ، حتى إنه لم يكن فى العرب أكثر من قريش مالا ، ولاأعز منهم نفرا ، ولهذا قال شاعرهم يمدحهم بتلك الحياة الاشتراكية التعاونية بين الأغنياء والفقراء :

الخالطين فقـــيرهم بغنيهم   حتى يكون فقيرهم كالـكافى

وكانت مكة خالية من الزرع والضرع ، لأنها كانت بواد غير ذى زرع ، فكان أشرافها يرتحلون للتجارة فى تينك الرحلتين السابقتين ، ويأتون لأنفسهم ولأهل بلدهم ما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب ، وما يحتاج اليه من يقصد مكة فى مواسم الحج من العرب وغيرهم ، وكانت هناك أسواق عالمية يقصدها التجار من جميع الجهات ، فكان أهل مكة فى أول الأمر يعتمدون على مايجبونه من الحجاج أو يتصدقون به عليهم ، فلم يكن يكفيهم إلا قليلا من السنة ، ثم يظهر بعده أثر الفقر عليهم ، فلم يجدوا إلا أن يشاركوا فى هذه التجارة التى تدرّ أرباحا طائلة على من يشتغل بها ، ولم يلبثوا إلا قليلا حتى صار زمام هذه التجارة

بأيديهم ، وساعدهم على هذا أن ملوك النواحى ورؤساء القبائل كانوا يعظمونهم غاية التعظيم ، لأنهم فى نظرهم جيران بيت الله تعالى ، وسكان حرمه ، وولاة كعبته ، حتى إنهم كانوا يسمون أهل مكة أهل الله ، فكانوا يأمنون فى رحلتيهم من إغارة القبائل العربية عليهم ، ويمتازون بهذا على غيرهم من العرب ، لأنهم كانوا يتخطفون من كل جانب ، ويغير بعضهم على بعض فى كل وقت .

فلما ظهر الإسلام نزلت سورة قريش السابقة تنوّه بشأن تينك الرحلتين التجاريتين العظيمتين ، وتعدّهما نعمة عظيمة أنعم الله بهما على قريش، لأن وجود حرمه بينهم هو الذى مكّن لهم فيهما ، وجعلهم يأمنون من إغارة القبائل العربية عليهما فى أسفارهما ، وهو كسب تجارى حلال يستحق ذلك التنويه ، ويصح أن يمتنّ بنعمته على قريش ، لأنه عمل سلمى مشروع لا إثم فيه ولا عدوان على أحد ، بخلاف مايعتمد عليه غير قريش من القبائل العربية التى تعتمد فى كسبها على السلب والنهب ، وإغارة بعضها على بعض ، مما يخرب ولا يعمر ، ويأتى على الحرث والنسل ، ولا يزيد شيئا فى ثروة البلاد كما تزيد فيها التجارة ، وإنما يكون فيه أن يأكل القوىُّ الضعيف ، ويستحلُّ ماله ونفسه .

وقد نبّه بالإيلاف فى السورة السابقة إلى أن من شرط السفر

المؤانسة والألفة ، لأنه أحوج إلى مكارم الأخلاق من الإقامة ، ثم كرر الإيلاف مرتين اهتماما به ، وقد أطلقه أولا ثم جعل المقيد بدلا منه تفخيما لأمره ، وتذكيرا بعظيم المنة فيه . والأقرب أن يكون الأول عاما يجمع كل مؤانسة وموافقة كان بينهم ، فيدخل فيه مقامهم وسيرهم وجميع أحوالهم ، ثم يخص إيلاف الرحلتين بالذكر لأنه قوام معاشهم .

وما كان للقرآن الكريم أن ينظر إلى اشتغال قريش بهذه التجارة غير هذه النظرة ، لأنه جاء بدين يريد النهوض بالعرب خاصة وبالناس عامة فى كل مايتعلق بأمور الدنيا والآخرة ، فينقل العرب من البداوة إلى الحضارة ، ومن الفوضى إلى نظام الحكم والدولة ، والتجارة من أهم أركان الحضارة ، ولا غنى عنها فى قيام الدولة .

أما الشعر الجاهلى — وقد سبق أنه كان لسان الرجعية والجمود فى الجاهلية — فقد نظر إلى هذه التجارة نظرة تناسب رجعيته وجموده ، فجعلها تخلفا من قريش فى ميدان المجد ، وضعفا عما يكسب البطولة ، لأن اشتغالهم بالتجارة منعهم من الاشتغال بالحروب التى كانت العرب تعتمد عليها فى الحصول على الغنائم ، وفى الاستحواذ على الأسلاب ، وكانت تظهر الأبطال الذين يحسنون قيادتها ، ويظهرون من الشجاعة ما يرفع من ذكرهم ، ويبنون به مجدا عظيما لأنفسهم .

وكان شاعر قريش فى الجاهلية عبد الله بن الزِّبَعْرَى ، فلم يرضه

انهماك قريش فى تجارتها ، وانصرافها عما يكسبها المجد من الحروب والغارات على عدوها ، فقال يهجوها لاشتغالها بهذه التجارة ، وقد أصبح الناس يوما بمكة ، فإذا على بابه الندوة — وهى مجتمع أشرافهم — مكتوب هذان البيتان :

ألهى قريشا عن المجد الأساطيرُ ورشوةٌ مثل ما ترشَى السفاسير[1]
وأكلها اللحم بحتا لا خليط له وقولها رحلتْ عير أتت عير

فأنكر الناس ذلك وقالوا : ما قالها إلا ابن الزِّبعرَى . وأجمع على ذلك رأيهم ، فمشوا إلى قومه بنى سهم ، وهم بطن من قريش ، وكان مما تنكر قريش وتعاقب عليه أن يهجو بعضها بعضا

فقالوا لبنى سهم : ادفعوه الينا نحكم فيه بحكمنا

فقالوا : وما الحكم ؟

قالوا : قطع لسانه

فقالوا : فشأنكم به ، واعلموا والله لا يهجونا رجل منكم إلا فعلنا فيه مثل ذلك . فأجمعوا على تخليته فخلوه ، فقال له الناس وحلوه على

---

(١) السفاسير السماسرة .

قومه : أسلمك قومك ولم يمنعوك ولو شاء وامنعوك . فقال :

لعمرك ماجاءت بُنُكر عشيرتى ... وإن صالحت أخوانها لاألومها

يود جناة الغى أن سيوفنا ... بأيماننا مسلولة لا نشيمها

ولم يكن هذا مذهب ابن الزبعرى وحده فى الاشتغال بالتجارة لكسب العيش ، وإيثارها على الاعتماد فيه على السلب والنهب بالحروب والغارات ، بل كان مذهب شعراء العرب الجاهليين عامة ، فقد اشتركوا جميعا فى تمجيد تلك البطولة الزائفة التى إكتسبها العرب فى حروبهم وغاراتهم ، وقد تغالوا فى هذا إلى أن يمجّدوا أعمال صعاليكهم فيه ، ولم يكونوا إلا لصوصا لاعمل لهم إلا قطع الطريق ، وإلا نشر الخوف والذعر بين الناس ، ونهب أموالهم بالظلم والعدوان .

ومما جاء من الشعر الجاهلى فى تمجيد بطولتهم قول حاتم الطائى :

وقه صعلوك يساور همّهُ

ويمضى على الأحداث والدهر مقدِماً

فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة

ولا شبعة إن نالها عدّ مغنما

إذا مارأى يوما مكارم أعرضتْ

تيمّم كبراهن ثمّتَ صمما

يرى رمحه ونبله ومجنّه
وذا شطب عضب الضريبة مخذما(١)
وأحناء سرج قاتر ولجامه
عتاد أخي هيجا وطرفا مسوّما(٢)
فذلك إن يهلك فحسنى ثناؤه
وإن عاش لم يقعد ضعيفا مذمّما

وكان من أمثل أولئك الصعاليك عروة بن الورد العبسى ، وهو الذى يقال له عروة الصعاليك ، لأنه كان يجمعهم ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم ، ولم يكن لهم معاش ولا مغزى ، وكان شاعرا من شعراء الجاهلية ، وفارسا من فرسانها ، وصعلوكا من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد ، وهو القائل :

لحى الله صعلوكا إذا جَنّ ليلُهُ
مضى فى المشاش آلفا كُلّ مجزرِ
يعدُّ الغنى من دهره كُلَّ ليلة
أصاب قِراها من صديق ميسّرِ(٣)

---

(١) شطب السيف خطوط متنه ، والمخذم القاطع .
(٢) العتاد العدة ، والهيجاء الحرب .
(٣) فى رواية — يعد الغنى من نفسه .

ولله صعلوك صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنوّر

وقد روى الأخفش عن ثعلب عن ابن الأعرابى قال : حدثنى أبو فقعس قال : كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة شديدة (١) تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة بن الورد يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته فى الشدة ، ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم ، ومن قوى منهم — إما مريض يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته — خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيباً ، حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى ، وضاق مال عروة فى بعض السنين فقال :

لعل ارتيادى فى البلاد وبغيتى وشدّى حيازيم المطية بالرحْلِ
سيدفعنى يوماً إلى ربّ هجمة يدافع عنها بالعقوق وبالبخل (٢)

فزعموا أن الله قيّض له فى شتاء شديد ناقتين دهماوين ، فنحر لعشيرته إحداهما ، وحمل متاعهم وضعفاءهم على الأخرى ، وجعل ينتقل بهم من مكان إلى مكان إلى أن نزل بهم بموضع يقال له ماوان ،

---

(١) جدب شديد (٢) الهجمة المائة من الإبل وربها صاحبها

فقيّض الله له رجلا صاحب مائة من الإبل ، قد فرَّ بها من حقوق قومه ، وذلك أول ما آلبن الناسَ ، فقتله وأخذ إبله وامرأته ، وكانت من أحسن النساء ، فأتى بالليل أصحاب الكنيف فحلبها لهم ، وحملهم عليها ، حتى إذا دنوا من عشيرتهم أقبل يقسمها بينهم ، وأخذ مثل نصيب أحدهم

وإنه لجميل من عروة أن يُعْنَى بالمريض والكبير والضعيف ، وأن يسعى لهم فيما يقوم بحاجاتهم ، ولكنه لا يحمد له أن يكون سعيه لهم بالتلصص والسطو على أموال الناس ، فمثل هذا هو الذى أضعف أمر العرب قبل الإسلام، ونشر الجوع والخوف بينهم، فقلّ مالهم ، وانتشر الفقر بينهم ، لأنهم لم يهتدوا إلى طرق الكسب الحلال ، وهى الطرق التى تزيد فى ثروتهم ، وتنشر الغنى بينهم

وإذا كان لعروة وأمثاله بطولة فى ذلك الغزو والنهب ، فهى بطولة زائفة لا قيمة لها ، ولا يصح أن تعدّ بطولة ترفع من قيمة صاحبها . ولكن جهل العرب بمقاييس البطولة الصحيحة قبل الإسلام هو الذى أوقعهم فى الاعتداد بتلك البطولة الزائفة ، وجعلهم يشيدون فى شعرهم بذلك المجد الزائف ، حتى كان من ابن الزِّبَعْرى أن عاب على قومه قريش اشتغالهم بالتجارة فى كسب العيش ، وإيثارهم لها على كسبه بالغزو

والسلب والنهب ، مع أن التجارة طريق شريف من طرق الكسب الحلال ، وركن من أركان الحضارة فى الأمم المتمدينة ، ولاشك أنه لم يحمله على هذا إلا أن التجارة جعلتهم يؤثرون حياة السلم ، ويجعلون حرمهم مكان أمن ، فلم يكن منهم أبطال حرب زائفون مثل أبطال القبائل العربية التى اعتمدت على الغزو والنهب فى كسب العيش ، لتخرّب البلاد ، وتنشر الفساد ، وتثير الخوف والرعب ، ولم يكن وراء ذلك إلا الهلاك المستأصل ، وإلا الخراب الذى لا يبقى ولا يذَر ، لولا أن تداركهم الله بالإسلام ، فرفع من شأنهم ، وقضى على أسباب الفساد بينهم

ولكن تلك البطولة الزائفة وجدت لها أنصاراً بعد الإسلام ينوّهون بها ، ويرفعون من شأنها ، فعاد حديثها فى الإسلام كما كان فى الجاهلية ، ووجد منها أبطال زائفون بعد الإسلام أيضاً ، حتى روى أن ابن معاوية قال : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم . وكذلك مضى الشعر العربى بعد الإسلام كما كان عليه قبله يمجد تلك البطولة الزائفة ، حتى جنى على الأدب العربى جنايته

فما أروع القرآن الكريم حين يمضى وحده فى ذلك الظلام الحالك

قبل الإسلام وبعده يضع الأمور فى نصابها الصحيح ، ويزنها بمقاييسها الصحيحة ، فينوه برحلتى قريش للتجارة ذلك التنويه العظيم ، ويخصهما بسورة من سوره الكريمة . وإن هذه لآية من الآيات العديدة الدالة على أنه من عند الله وحده ، لأنه ما كان لبشر أن ينفرد بتلك النظرة إلى التجارة فى تلك الظلمة الحالكة، ولكنه كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ؟

اصل البشرية فى القرآن

بعد الطوفان وقبله

المشهور بين المفسرين والمؤرخين أن نوحاً عليه السلام هو الأب الثانى للبشر بعد آدم عليه السلام ، لأنه لم يبق إلا أبناؤه بعد الطوفان ، وهذا هو ظاهر قوله تعالى فى الآيات — ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ — من سورة الصافات (ولقدْ نادَانا نوحٌ فلنعمَ المجيبونَ ، ونجيناهُ وأهلَهُ مِنَ الكربِ العظيمِ ، وجعلنا ذريّتهُ هُمُ الباقينَ) وكذلك جاء فى التوراة فى الأصحاح التاسع من سفر التكوين : وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافث ، هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ، ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض

وجمهور المؤرخين على أن التُرْك والفُرْس وجميع فروع الجنس الآرى من أبناء يافث ، وعلى أن العرب والكلدان ومن إليهما من أبناء سام ، وعلى أن المصريين والسودان ومن إليهما من أبناء حام ، فكل الشعوب البشرية ترجع إلى هذه الأصول الثلاثة ، ولا يشذّ عن هذا فرع من الفروع البشرية

ولكننا إذا دققنا النظر فى قصة نوح وجدنا فيها ما يدل على أن ذلك النص وغيره من النصوص القرآنية لا يراد منها ما فهمه أولئك المفسرون والمؤرخون من حصر أبوة البشر بعد الطوفان فى نوح وأبنائه ، وذلك أن الله تعالى أرسل نوحاً إلى قومه فأخذ يدعوهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وينهاهم عن الكفر وغيره من المعاصى ، فلم يؤمن به إلا قليل من عامتهم ، وأبى رؤساؤهم وطبقة الأغنياء أن يؤمنوا به ، وكان مما عابوه عليه اتباع أولئك العامة له ، وهم الذين وصفوهم بأنهم أراذلهم فى قوله تعالى فى الآية — ٢٧ — من سورة هود (فقالَ الملأُ الّذينَ كفرُوا مِنْ قومِهِ ما نراكَ إلاّ بشراً مثلنا وما نراكَ اتبعكَ إلاّ الذينَ هُمْ أراذلُنا بادِىَ الرأىِ وما نرى لكُمْ علينا مِنْ فضلٍ بَلْ نظنكُمْ كاذبينَ) وما كانوا أراذلهم كما يزعمون ، ولكنه طغيان طبقة الرؤساء والأغنياء وقياسهم للناس بمقياس الغنى والفقر ، وتقسيمهم لهم بهذا المقياس إلى أشراف وسُوقة ، ولهذا قال لهم نوح بعد هذه الآية والتى بعدها (ويا قومِ لا أسألكُمْ عليهِ مالاً انْ أجرىَ إلاّ على اللهِ وما أنا بطاردِ الذينَ آمنُوا إنهمْ ملاقُوا ربهمْ ولكنّى أراكُمْ قوماً تجهلونَ) وهذا صريح فى أن أولئك الذين آمنوا بنوح كانوا من غير أهل بيته ، وهم الذين طلب أشراف قومه أن يطردهم ليؤمنوا به فأبى هذا عليهم

واستمر نوح بعد هذا يدعوهم إلى أن أيس من إيمانهم ، وإلى أن زاد بغيهم وطغيانهم ، فدعا الله أن يهلكهم بقوله فى الآيتين — ٢٦ ، ٢٧ — من سورة نوح (وقالَ نوحٌ ربِّ لا تذرْ عَلَى الأرضِ مِنَ الكافرينَ ديَّاراً ، إنكَ إنْ تذرهمْ يضلُّوا عبادكَ ولا يلدُوا إلاَّ فاجراً كفاراً) فاقتصر دعاؤه على هلاك الكافرين من قومه

فاستجاب الله لدعاء نوح ، وجعل هلاكهم بطوفان يرسله عليهم ، وأمره أن يصنع سفينة تسع من أراد نجاته من ذلك الطوفان ، وهم من آمن به من أهل بيته وأصحابه ، وتسع ما يحتاجون إليه من حيوان من كل زوجين اثنين ، كما قال تعالى فى الآية — ٤٠ — من سورة هود (قلنا احملْ فيها من كلٍّ زوجينِ اثنينِ وأهلَكَ إلا مَنْ سبقَ عليهِ القولُ ومَنْ آمنَ وما آمنَ معهُ إلاَّ قليلٌ) وهذا أصرح مما سبق فى أنه كان ممن آمن به قليل من غير أهله

فلما أرسل الله الطوفان عليهم ركب نوح وأهله وأصحابه سفينتهم فسارت بهم حتى غاض ماء الطوفان ، واستوت على جبل الجوديّ ، وكان نوح وأهله فيما يقال ثمانية ، وكان أصحابه فيما يقال ثمانين رجلا وامرأة ، فبقوا فى الأرض التى بجانب ذلك الجبل ، وبارك الله فيهم وفى ذريتهم بعد الطوفان حتى امتلأت الأرض بهم بعد خرابها به ، وصاروا فيها

خلفاً لمن هلك من أهلها ، كما قال تعالى فى الآية —٧٣— من سورة يونس (فكذبوهُ فنجيناهُ ومَنْ معهُ فى الفُلْكِ وجعلناهمْ خلائفَ وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنافانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المنذَرينَ) وفى الآية — ٤٨ — من سورة هود (قيلَ يا نوحُ اهبطْ بسلامٍ منّا وبركاتٍ عليكَ وعَلَى أممٍ ممّنْ معكَ وأممٌ سنمتّعهمْ ثمّ يمسُّهم منّا عذابٌ أليمٌ)

والآية الأخيرة صريحة فى أنه بارك على أصحاب السفينة جميعاً ، وفى أن الأمم التى جاءت بعد نوح كانت منه وممن معه ، وقد زعم بعض المفسرين أن الله أهلك أصحاب نوح بعد أن نزلوا من السفينة ، وهذا خلاف ما جاء فى الآية من بركاته على أمم ممن معه ، وإنما هو زعم يراد به تأييد المشهور من غير تحقيق أن نوحاً هو الأب الثانى للبشر بعد آدم ، ولكنه زعم غير معقول أيضاً ، لأنه لا معنى لأن يشملهم الله برعايته فينجيهم من الطوفان ثم يهلكهم بعد نزولهم من السفينة ، وإنما المعقول أن يكون مصيرهم كمصير نوح ، وأن تتحقق فيهم بركة الله التى وعدهم بها ، ووعد الله تعالى لا يتخلَّف

وأما قوله تعالى فيما سبق (وجعلنا ذريته هم الباقين) فالقصر فيه إضافى لا حقيقى ، فلا يفيد إلا حصر البقاء فى ذُرِّية نوح بالنسبة إلى

من أغرقهم بالطوفان ، وإذا كان حصر البقاء في ذريته بالإضافة إلى من أغرقهم فإنه لا يمنع بقاء ذرية أصحابه مع ذريته أيضاً ، وعلى هذا لا يكون هناك خلاف بين هذه الآية والآية السابقة التي تفيد بقاء ذريتهم مع ذريته

على أن الألوسي المفسر ذكر فرقة ذهبت إلى أن نوحاً إنما دعا بالهلاك على من لم يؤمن برسالته من قومه ، وهو إنما أرسل إليهم وحدهم ، ولم يرسل إلى أهل الأرض جميعاً ، ووصول دعوته وهو في العراق أو جزيرة العرب إلى الأقطار النائية كالصين واليابان غير معلوم ، وعلى هذا يكون ذلك الطوفان خاصاً لا عاماً ، والأرجح أنه كان طوفان دجلة أو الفرات أو هما معا بأرض العراق ، ثم ذكر أن هذه الفرقة ذهبت إلى أن القصر في قوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) قصر إضافي لا حقيقي ، فلم يكن إلا بالنسبة إلى من معه في السفينة ، وهذا قول يخالف مذهب الجمهور السابق في تفسير آية (وجعلنا ذريته هم الباقين) ولكنه يوافقهم في قصر ذرية من بقي من قومه بعد الطوفان عليه وحده دون من نجا معه ، لأنه جعل القصر في الآية السابقة بالإضافة إلى من كان معه في السفينة ، وإني أخالفه في هذا وأجعله بالإضافة إلى من أهلكوا بالطوفان ، ليكون نسل من بقي من قومه بعد الطوفان

لنوح ومن كان معه فى السفينة ، وليضاف هذا أيضاً الى نسل غير قومه ممن لم يرسل اليهم ، وممن لم يهلكوا بالطوفان مع قومه

ولكن يبقى بعد هذا نص التوراة السابق ، فإنه يكاد يكون صريحاً فيما ذكره أولئك المفسرون والمؤرخون من قصر أبوّة البشر بعد الطوفان على نوح ، ونحن لا يهمنا نص التوراة بقدر ما يهمنا نص القرآن ، على أن بعض مفسريها ذهب الى أن اقتصارها على ذلك لا يدل على قصر أبوّة البشر بعد الطوفان على نوح ، لأنها لم تكن تُعنَى إلا بذكر الأسماء المشهورة بين آدم ونوح عليهما السلام ، وإلا بذكر الأسماء المشهورة بين نوح وموسى الذى أنزلت عليه ، فلا يكون ترك ذكرها لغيرهم دليلا على عدم وجودهم ، وهذا رأى يحتمل فى تفسير التوراة ، وهو أولى بالاعتماد من الرأى المشهور فى تفسيرها ، لأنه يفتح الطريق أمام العلم والتاريخ فى هذه المسألة ، ولا يضيق عليهما فيها ، ليصلا بالدليل العلمى الى ما يرتاح اليه العقل ، ولا ينكره النقل ، والجمع بينهما بهذا أولى بأن يتّبع

وبعد فهناك خلاف كبير بين علماء عصرنا فى أن النوع الإنسانى يرجع إلى أصل واحد أو الى أصول متعددة ، ولا يقتصر الخلاف بينهم فى هذا على أبوّة نوح له بعد الطوفان ، بل يمتد الى أبوة آدم له قبل

نوح ، ومن يرى أن النوع الإنسانى يرجع الى أصول متعددة يقصر أبوة آدم ونوح على ما يعرف بالجنس السامى ، ويرجع غـــيره من الأجناس إلى أصول أخرى غير آدم ونوح ، وقد وردت آثار إسلامية واسرائيلية تفيد أن الأرض كانت مسكونة قبل ظهور آدم ، ولا يوجد نص صريح فى التوراة أو القرآن يفيد أن من كان يسكنها قبل آدم قد أهلك بآية من آيات الله التى يهلك بها خلقه ، وإنمـا جاء فى سورة البقرة أن الله تعالى ذكر للملائكة أنه سيجعل آدم خليفة على الأرض ، واستخلافه له عليها لا يدل على أنه سينفرد بسكناها وحده ، فقد جعل عاداً خلفاء بعد قوم نوح ، وجعل ثمود خلفاء بعـد عاد ، ثم استخلف غيرهم من الأمم بعضهم بعد بعض ، ولم يكن فى هـــذا ما يدل على أن الأمة التى استخلف الله بعدها غيرها لم يبق أحد منها بعد استخلاف غيرها ، وإنما هو استخلاف فى الدولة والحـكم وارتفاع الشأن ، لا فى الوجود على الأرض ، فليكن استخلاف آدم مثل هذا الاستخلاف ، ولكنه يجب أن يكون احتمالا فى تفسير قصته فى القرآن ، فلا نذهب إليه إلا إذا قام دليل علمى قاطع على أن النوع الإنسانى يرجع الى أصول متعددة ، كما هو الأصل فى كل مايتعارض فيه دليل العقل ودليل النقل ، من أنه لايصار الى تأويل دليـل النقل الا بالدليل العقلى القاطع ، والله أعلم ؟

مريم أم عيسى فى القرآن

بنوتها لعمران أخوتها لهارون

وردت بنوة مريم لعمران فى قوله تعالى فى الآيات — ٣٣ ، ٣٤، ٣٥ — من سورة آل عمران (إنَّ اللهَ اصطفَى آدمَ ونوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عمرانَ عَلَى العالمينَ ، ذريةً بعضُها مِنْ بعضٍ واللهُ سميعٌ عليمٌ ، إذْ قالتِ امرأةُ عمرانَ ربِّ إنِّي نذرتُ لكَ ما فى بطنِي محرراً فتقبلْ منِّي إنكَ أنتَ السميعُ العليمُ ، فلمَّا وضعتْها قالتْ ربِّ إنِّي وضعتُها أنثَى واللهُ أعلمُ بما وضعتْ وليسَ الذكرُ كالأنثَى وإنِّي سميتُها مريمَ وإنِّي أعيذها بكَ وذُريتها مِنَ الشيطانِ الرجيمِ)

وودرت أخوتها لهارون فى الآيتين — ٢٧ ، ٢٨ — من سورة مريم (فأتتْ بهِ قومَها تحملهُ قالوا يامريم لقدْ جئتِ شيئاً فريًّا ، ياأختَ هارونَ ما كانَ أبوكِ امرأ سوءٍ وما كانتْ أمُّك بغيًّا)

كما وردت بنوتها لعمران فى الآية — ١٨ — من سورة التحريم (ومريمَ ابنةَ عمرانَ التى أحصنتْ فرجَهَا فنفخنَا فيهِ مِنْ روحنَا وصدَّقتْ بكلماتِ ربِّها وكتبهِ وكانتْ مِنَ القانتينَ)

وقد اتخذ المبشرون المسيحيون هذه الآيات في عصرنا ذريعة الطعن في القرآن الكريم ، لأن مريم لم تكن بنتا لعمران ولا أختا لابنه هارون ، وقد كان بين موسى بن عمران وعيسى بن مريم ألف وخمسمائة سنة ، فلا يصح أن يكون أبوه عمران أبا لمريم أم عيسى ، ولا أن يكون أخوه هارون أخا لها ، وإنما كانت مريم بنت هالى أو عالى ، وكانت من نسل داود ومن سبط يَهُوذَا ، وأما موسى وهارون وأبوهما عمران فهم من سبط لاوِى ، فنسبها بعيد عن نسبهم ، ولا تجتمع معهم إلا في إسرائيل أبى الأسباط كلّهم ، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام

وإنه ليكفينا معشر المسلمين أن نقول إن عمران أبا مريم غير عمران أبى موسى وهارون ، وقد أخبر القرآن الكريم بهذا ، فيجب علينا تصديقه ، وما يذكره أولئك المبشرون مما يخالف هذا لا يصح التعويل عليه ، لما ثبت من تحريف كتبهم ، فلا يعوّل عليها في هذا كما يعول على القرآن الكريم الذى حفظه الله من التحريف

ولكن هذا لا يمنعنا من أن نذهب في الجواب عن ذلك مذهبا آخر لا يدع أثرا في نفس من يتأثر بكلام أولئك المبشرين ، ولا يمكنهم أن يوجهوا معه ذلك الطعن للقرآن الكريم ، وهذا بأن نذهب إلى أن

أن عمران الذى نسبت إليه مريم فى القرآن الكريم هو عمران أبو موسى وهارون ، وإلى أن هارون الذى قيل إنها أخته هو هارون بن عمران وأخو موسى عليهما السلام ، للارتباط بين الأمرين على الوجه الذي سأختاره فى توجيههما به ، وهو توجيه جديد لم أسبق إليه ، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هارون الذى قيل إنها أخته هو هارون بن عمران ، ولكن على وجه لا سند له من التاريخ ، ولا يثبت أمام النقد التاريخى الحديث ، ولا يربط بين الأمرين كما يربط التوجيه الذى ذهبت إليه .

وكانت أخوة مريم لهارون مشكلة قديمة من مشاكل علم التفسير ، حتى إن كعب الأحبار قال لعائشة رضى الله عنها : إن هارون فى الآية ليس أخا موسى ، فقالت له : كذبت . فقال لها : يا أم المؤمنين ، إن كان النبى صلى الله عليه وسلم قاله فهو أعلم وأخبر ، وإلا فإنى أجد بينهما ستمائة سنة . فسكتت [1]

وقيل فى الجواب عن هذا الإشكال إن المراد يا أخت هارون فى الصلاح لا فى النسب ، وقيل : إن أهل الصلاح فى بنى إسرائيل كانوا يُسَمَّوْنَ بهذا الاسم ، وأن هارون هذا كان رجلا صالحا فى عهد مريم ،

---

(١) قد سبق أن ما بينهما ألف وخمسمائة سنة ، فلعل هذا خطأ فى النقل عنه

قيل : إنه يوم مات تبع جنازته أربعون ألفا من بنى اسرائيل كلهم يسمى هارون سوى سائر الناس ، ولا شك أن هذا ونحوه من الأساطير التى شحنت بها كتب التفسير ، وسيأتى من توجيهنا لهذا ما يشفى الغليل ، ولكننا نعجب لأنهم لم يتوقفوا فى بنوة مريم لعمران كما توقفوا فى أخوتها لهارون ، فلم يحاولوا حلّ المشكلة الأولى كما حاولوا حلّ المشكلة الثانية ، مع أن الارتباط بينهما ظاهر كل الظهور .

فإذا أردنا أن نحل المشكلتين على وجه يرضاه العلم والتاريخ وجب أن نعرف أن أحبار بنى إسرائيل وخدّام بيت المقدس كانوا من أبناء هارون بن عمران ، لأن كهانة بنى إسرائيل كانت متوارثة فيهم ، وكانوا يلون من بيت المقدس ما تلى السدنة من الكعبة ، وكانت أم مريم تسمى حنّا بنت فاقوذا ، وهى أخت إيشاع — اليصابات — زوج زكريا عليه السلام ، وكانت إيشاع من نسل هارون ، فتكون أختها حنا من نسله أيضا (١) وتكون مريم من نسله من جهة أمها ، أما أبوها فهو من سبط يَهُوذَا كما سبق وكانت حنا قد أمسك عنها الولد حتى أيست وكبرت ، فدعت الله أن يهب لها ولدا ، ونذرت أن تتصدّق به على بيت المقدس ، فيكون من سدنته وخدمه ، فحملت

---

(١) أنظر إنجيل لوقا — ص ١ — ٥ ، ص ١ — ٣٦

بمريم ومات أبوها قبل أن تضعها ، ولما وضعتها لفتها في خرقة وحملتها إلى بيت المقدس ، ووضعتها عند أحباره من أبناء هارون ، فتنافسوا فيها أيهم يكفلها ، ثم اقترعوا عليها فخرجت قرعتها لزكريا زوج خالتها ، وكان من نسل هارون كسائر الأحبار ، ولم يكن من نسل داود كما زعمه بعض المفسرين .

فضم زكريا مريم إليه ، وبالغ في الاهتمام بأمرها ، حتى يقال إنه بنى لها بيتا واسترضع لها مراضع غير أمها ، لأنها كانت شيخة كبيرة لا يكفي لبنها لغذاء ابنتها ، ولما شبت وبلغت مبلغ النساء بنى لها محرابا في المسجد وجعل بابه في وسطه ، فلا يرقى إليه إلا بسلم ، ولا يصعد إليها غيره ، وكان هو الذي يقدم لها كل يوم طعامها وشرابها ، ويمكننا أن نستخلص من هذا كله ما يأتي :

(١) أن مريم ولدت نذيرة الرب وابنة بيت المقدس ، حتى طغت هذه النسبة على نسبتها إلى أبويها ، ولهذا أمثلة كثيرة لا نزال نشاهد كثيراً منها .

٢) أنها تربت في بيت من بيوت هارون هو بيت زكريا ، وكان أبوها قد مات قبل أن تولد ، فنشأت لا تعرف لها أبا غير زكريا الذي كفلها ، واهتم ذلك الاهتمام بتربيتها .

٣) أنها عاشت بين الأحبار حتى صارت تعد منهم ، وكانت تشاركهم فى وظيفتهم الدينية ، وتقضى وقتها فى عبادة ربها .

ولا شك أن هذه الأمور كلها تجعل من السائغ جداً أن تنسب مريم إلى هارون أبى الأحبار كما ينسبون إليه ، وأن يقال لها فى ذلك يا أخت الأحبار أو يا أخت هارون ، على تقدير يا أخت أبناء هارون كما يقال لمن يتصل بتميم من قبائل العرب بالنسب أو غيره يا أخا تميم . وتجعل من السائغ أيضاً أن تنسب إلى عمران أبى هارون ، فيقال إنها مريم بنت عمران ، لأنه الأب الثانى للأحبار بعد هارون ، وهذا إلى أنها تنسب إليه من جهة أمها كما سبق ، وقد قرن الله تعالى آل عمران بآل إبراهيم فى قوله فيما سبق (إنَّ اللهَ اصطفَى آدمَ ونوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عمرانَ عَلَى العالمينَ) وبهذا يكون عمران من الأسماء التى يدعى نسلها لها وإن بعد ، ويكون شأنه فى ذلك شأن إبراهيم وإسرائيل عليهما السلام ، على أن الله تعالى قال عقب هذه الآية فى أم مريم (إذْ قالتِ امرأةُ عمرانَ ربِّ إنّى نذرتُ لكَ ما فى بطنى محرَّراً) ومن المعلوم أن المعرفة إذا أعيدت معرفة تكون عين الأولى ، وعلى هذا يكون الظاهر أن عمران فى قوله (امرأة عمران) هو عمران فى قوله (وآل عمران) وقد ذكر المفسرون أن أقرب الأقوال فى

آل عمران أبهم موسى وهارون وعمران أبوهما ، ولا يكفينا هذا إلا أن نحمل الإضافة فى قوله (امرأة عمران) على معنى من ، وهو جائز فى كل ما يكون المضاف فيه بعض المضاف إليه ، كما تقول يد زيد ونحوه .

وإنما آثر قوم مريم أن يقولوا لها (يا أخت هارون) حينما أتتهم تحمل ابنها ، ولم يقولوا لها يامريم أو نحو ذلك مما يصح أن تخاطب به ، لأنهم يشيرون بهذا إلى أن ما أتت به لا يليق بها بعد أن عاشت بين الأحبار أبناء هارون حتى صارت تعد منهم ، وتنسب إلى أبيهم هارون كما ينسبون إليه ، وهذا غاية ما يكون فى التوبيخ والتبكيت ، لأن ما يحتمل من بعض أفراد الناس لا يحتمل من الأحبار ومن ينسب إليهم

ولا شك أن هذا المسلك فى الرد على أولئك المبشرين مما يرتاح إليه العقل ، وهو إلى هذا يبعد بالقرآن الكريم عن محال الطعن ، على أنا يجب أن نذكر بعد هذا أن هؤلاء القوم مختلفون فى اسم أبى مريم ، فقد جاء فى إنجيل يعقوب أن اسمه يهوياقيم ، وذكر ابن خلدون أن يوياقيم بالعبرانية هو عمران بالعربية لتقارب معناهما (١) ولكن إنجيل يعقوب ليس من الأناجيل المعترف بها عند المسيحيين ، وأما اسم هالى أو عالى فقد جاء فى إنجيل لوقا ، ولكنه لم ينص صريحا على أنه أبو مريم ،

---

(١) جـ ٢ ص ١٤٤

وإنما جاء فيه : ولما ابتدأ يَسُوعُ كان له نحو ثلاثين سنة ، وهو على ما كان يظن الناس ابن يوسف بن هالى بن متثات ، وهذا ظاهر فى أن هالى أبو يوسف لا أبو مريم ، ولكن إنجيل متّى ذكر فى نسب المسيح أنه ابن يوسف بن يعقوب بن متان ، وعلى هذا يكون أبو يوسف يعقوب لا هالى ، فاضطروا فى دفع التناقض بين الإنجيلين أن يقولوا إن هالى كان أبا يوسف من جهة مريم ، لأنه لم يكن لأبيها ولد ذكر ، فنسب إليه يوسف فى إنجيل لوقا على ما كان معروفاً عند اليهود فى ذلك ، ولكن هذا التناقض كما يدفع بذلك يمكن دفعه بأن إنجيل لوقا ذكر فى نسب المسيح ٥٤ أباً ، وإنجيل متى ذكر فيه ٤١ أباً ، فيجوز أن يكون هالى من آباء يوسف التى تركها متى ، ولا يتعين أن يكون أبا لمريم ، ومن يكون عنده هذا الاضطراب فى نسب مريم يكون من الخير له ألا يوجهَ معه إلى القرآن الكريم شيئاً من الطعن فيما ذكره فى هذا النسب ؟

تنويه القرآن والحديث

بملكين من أنصار الفلسفة

يظن كثير من الناس أن الدين عدوٌّ للفلسفة، ومن يظن هذا قد يكون ممن يؤمن بالدين، فيرى أن الفلسفة كفر، وان المشتغلين بها كفار، وقد جاء في بعض الرسائل الملحقة بالأناجيل عند المسيحيين — لأن حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله — وجاء فيها أيضاً — الرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة (١ — كو٣ ١٩ ، ٢٠) ويوجد كثير من علماء المسلمين ينظر إلى الفلسفة هذا النظر، ويرى أنها ضلال وكفر، وقد يكون من يظن ذلك الظن ممن لا يؤمن بالدين، فيرميه بالعداوة للفلسفة قدحا فيه، وزراية بأهله.

والحقيقة أن الفلسفة أو الحكمة غايتها البحث عن حقائق الأشياء بقدر الطاقة البشرية، وإذا كانت هذه غايتها فإنه لا يمكن أن يكون بينها وبين الدين عداوة؛ لأنها تسعى وراء غاية محمودة، وإن كانت قد تخطىء فيها أحيانا، ومن الممكن أن يحمل عليها قوله تعالى في الآية — ٢٦٩ — من سورة البقرة (يؤتِي الحكمةَ مَنْ يشاء ومَنْ يؤتَ الحكمةَ فقدْ أوتِيَ خيراً كثيراً وما يذكَّرُ إلا أولُو الألبابِ) ولا غرابة

بعد هذا فى أن يَرِدَ فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف مدح ملِكين عظيمين كانا من أنصار الفلسفة ، وقد انتشرت وترعرعت فى حمايتهما ورعايتهما .

فأما الملك الذى ورد فى القرآن فهو الاسكندر المقدونى الفاتح العظيم ، وقد نُوِّه به فى قوله تعالى فى الآيات - ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ — من سورة الكهف (ويسألونكَ عَنْ ذى القرنينِ قلْ سأتلو عليكمْ منهُ ذكراً إنّا مكّنّا لهُ فى الأرضِ وآتيناهُ منْ كُلِّ شىءٍ سبباً) الآيات ، فذو القرنين هو الإسكندر المقدونى فى رأى كثير من المفسرين ، وسنحقق ذلك فى مقالنا الآتى — العين الحمئة فى القرآن الكريم هى عين الشمس بسيوة مصر — وقد لُقِّب بذلك لأنه ملك قرنى الشمس — المغرب والمشرق — أو لأنه كان فى تاجه قرنان ، كما ظهر ذلك حديثا فى نقود سُكَّت فى عهده ، وقد وجد عليها صورته وفوقها تاجه بقرنيــه ، وقد عرف عن العرب مثل ذلك اللقب فى ملوك اليمن ، فكانوا يقولون ذو نُواس وذو جدَن وغير ذلك ، كما عرف عنهم فى بعض ملوك العجم ، كسابور ذى الأكتاف ، وقد لَقّبوه بهذا لأنه سار فى جيشه إلى بعض نواحى العرب الذين كانوا يعيثون فى الأرض ، فقتل من قدر عليهم ونزع أكتافهم

وكان الإسكندر المقدونى تلميذا لأرسطو أكبر فلاسفة اليونان . وأجلّهم قدرا ، وأعلاهم ذكرا ، وقد عهد إليه فليبوس والد الاسكندر وملك مقدونية بتربيته وتهذيبه . فربّاه أحسن تربية ، وثقّفه بالفلسفة وعلومها . وكان لذلك أحسن الأثر فيه بعد أن صار ملكا فاتحا ، فكانت فتوحاته سببا فى نشر الفلسفة وعلومها ، ووسيلة تعارف بين الأمم والشعوب ، حتى كان عهده بدء عهد جديد فى تاريخ الأرض ، وفاتحة عصر مشرق فى تاريخ البشر ، وقد كان لأستاذه أرسطو سلطان كبير فى ملكه ، وكان يرسل إليه فى فتوحاته من آثار البلاد التى يفتحها ، ما يفيده فى دروسه الفلسفية ، ويعود على الفلسفة بالفائدة فى تحقيق مسائلها وتوسعة معارفها .

وأما الملك الذى نوّه به فى الحديث فكسرى أَنُوشِرْوَانَ ملك فارس ، وقد أثنى عليه النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله « ولدت فى زمن الملك العادل » وإن كان بعض العلماء يرى ضعف هذا الحديث ، ولكسرى أنوشروان على الفلسفة فضل معروف ، وجميل لا ينكر ، فهو الذى حمى رجالها حينما هربوا إليه من اضطهاد نصارى الروم فى عهد ملكهم جوستنيانوس ، وكان قد اضطهد الفلاسفة فى بلاده ، وأغلق مدارسهم بأثينا ، فلجؤوا إلى كسرى أنوشروان ، فأكرم وفادتهم وأنشألهم

مدرسة عظيمة بجند يسابور ، وهى المدرسة التى حفظت علوم الفلسفة من الضياع ، وكانت مقصد طلابها من الشرق والغرب ، وقد بقيت بعد ذلك الملك العادل إلى عهد الدولة العباسية ، وكان لرجالها أعظم الفضل فى نهضتها العلمية .

وبعد أن أنشأ ذلك الملك تلك المدرسة أمر أولئك الفلاسفة الوافدين عليه بتأليف الكتب الفلسفية ، و نقل ما كان موجودا منها عندهم إلى اللغة الفارسية ، وكان يعقد المجالس للبحث والمناظرة فى مسائل الفلسفة حتى خُيِّل إلى فلاسفة الإغريق الذين جالسوه أنه من تلامذة أفلاطون ، وقد ظن الأستاذ إسماعيل مظهر أن ما ورد فى هذه الرواية من تلمذة أنوشروان لأفلاطون يراد به التلمذة الحقيقية ، فأنكر هذه الرواية كلها إلى من أولها آخرها ، ولم يعترف بما ورد عن كسرى أنوشروان فى حماية الفلسفة .

وكان الحارث بن كلدة طبيب العرب وفيلسوفها من تلامذة مدرسية جنديسابور ، وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأمر أصحابه بالتداوى عنده ، وفى هذا من التقدير لعلمه وطبه ما فيه ، وكذلك فعل بعده عمرو بن العاص رضى الله عنه بالفيلسوف يوحنا النحوى [1] فقد اتصل به بعد فتح مصر ، وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم يكن للعرب

---

(١) قيل إن يوحنا النحوى مات قبل فتح عمرو لمصر ، فلعله فيلسوف آخر غير يوحنا ظن أنه يوحنا لشهرته .

إلف بها ما أدهشه ، وجماله يفتنه ، وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر ، فلازم هذا الفيلسوف وكان لا يفارقه .

ولا أنكر مع هذا كله أنه قد يكون في الفلسفة إلحاد ، وقد يكون بين رجالها فلاسفة ملحدون ، ولكن هذا لا يصح أن يقدح فيها ، كما لا يصح أن يقدح في الإسلام أو غيره من الأديان بما يظهر فيهما من المذاهب الشاذة ، أو يوجد بين أهلها من الفرق الضالة ، وقد جاء في كتب - قادة الفكر - للأستاذ طه حسين أن فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو تقوم على أساس الاعتقاد بالله ، ولهذا اضطهدتها الوثنية اليونانية . وحاربت رجالها ، وقتلت كثيراً منهم ، وجاء في كتاب - بداية القدماء ونهاية الحكماء - أن سبب الحكم على سقراط بالقتل هو دعوته إلى الله تعالى وترك آلهة قومه ، وجاء في كتاب - أعلام المقتطف - أن سقراط كان ملهما ، فإذا صح هذا فإنه لا يوجد عندنا ما يمنع أن يكون نبيا ، وقد قال تعالى في الآية ٢٤ من سورة فاطر (وإنْ مِنْ أمةٍ إلاّ خلاَ فيها نذيرٌ) .

وقد جاء أيضا في كتاب - تاريخ اليونان - أن أنكساغور كان يكفر بآلهة اليونان ، وأنه مهد بهذا لمذهب سقراط ، وجاء في كتاب - أساطير الأولين - أن الرجال الممتازين من الشعوب الوثنية القديمة كانوا يعتقدون أن الله واحد ، ويكفرون بآلهة أقوامهم ، ويخفون ذلك خوفاً منهم . ؟

العين الحمئة فى القرآن

١) العين الحمئة فى قصة ذى القرنين هى عين الشمس بسيوة :

هذا كشف جديد هدانا الله تعالى إليه فى مطالعتنا للكتب بعقل واع لما يطالع ، فالعين الحمئة أو الحامية هى العين الواردة فى قصة ذى القرنين من سورة الكهف فى الآيات — ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ — (ويسألونكَ عَنْ ذى القرنينِ قلْ سأتلُو عليكُمْ منهُ ذكراً ، إنَّا مكنَّا لهُ فى الأرضِ وآتيناهُ مِنْ كُلِّ شىءٍ سبباً فأتبعَ سببا ، حتى إذا بلغَ مغربَ الشمسِ وجدهاَ تغربُ فى عينٍ حمئةٍ ووجدَ عندهاَ قوماً) وفى بعض القراآت حامية بدل حمئة ، والحامية الحارة ، والحمئة هى ذات الماء والطين ، ومن الجائز أن تكون العين جامعة للوصفين معاً .

وقد يكون من الغريب أن يضطرب المفسرون فى تفسير تلك العين إلى عصرنا مع أبهاقرية مناف سيوة مصر المعروفة من قديم الزمان ، ولكن اضطرابهم فيها إذا دل على شىء من الضعف فى علمهم فإن فيه دلالة عظيمة على أن هذا القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خالفه ، وعلى أن الزمان كفيل ببيان كل ما فيه من الحقائق التى اضطرب فيها أولئك المفسرون .

فهذه العين الحمئة أو الحامية هى عين الشمس فى سيوة مصر بعينها ، وكانت هذه العين معروفة بها من قديم الزمان ، وقد ذكرها المؤرخ اليونانى الكبير — هيرودوت — فى تاريخه ، كما ذكرها غيره من المؤرخين ، وكان بالقرب منها هيكل المشترى المعروف باسم — أمون — ويسميه اليونان — جوبتير أمون — وتلك العين فى الجنوب الشرقى لآثار ذلك الهيكل ، ومن خاصّتها أن ماءها يكون فاتراً فى الصباح ، بارداً وقت الزوال ، حاراً وقت الغروب ، شديد الحرارة فى نصف الليل ، وقد نقل عن كنتكرس أن الإسكندر المقدونى — وهو ذو القرنين عند كثير من المفسرين — لمّا استولى على أقاليم مصر القبلية ، رغب فى زيارة معبد — جوبتير أمون — فقيل له إن الطريق إليه صعبة قليلة الماء ، شديدة الحرارة ، كثيرة الرمال ، يصعب المشى فيها ، فلم يثنه هذا عن عزمه ، ومضى فى النيل إلى بُحيرة مريوط ، ثم سافر يومين سفراً سهلا ، ودخل بعد ذلك فى الصحراء ، فإذا أرض ذات رمال ، لا نبات فيها ولا ماء ، فقاسى فيها شدائد عظيمة ، وفرغ الماء من القِرب ، وضاق به الحال ، وكاد يموت هو وجيشه ، فأنزل الله

عليهم المطر ، فشربوا وملؤوا قربهم ، ثم ساروا فى القفار أربعة أيام حتى وصلوا إلى وادى — جو بتير أمون — فإذا هو ذو أشجار ظليلة ، ومياه كثيرة ، وهواء رطب ، وقد وجدوا به سكاناً يسمون — الأمونيين — يسكنون أعشاشاً منتشرة تحت ظلال الأشجار ، ويوجد فى وسط تلك المساكن معبد يحيط به ثلاثة أسوار كالقلعة ، وفى داخل السور الأول مساكن ملوكهم الأقدمين ، وفى داخل السور الثانى النساء والأولاد والعبيد ، وفى داخل السور الثالث المحافظون على المعبد ، ثم وجدوا بقرب ذلك المعبد عين الشمس السابقة . وكانوا يزعمون قديماً أنه تسمع فيها الغيبيات من هاتف أمون ، ولا تزال تلك العين موجودة إلى عصرنا ، وقد رآها لينان باشا فى رحلته إليها ، وذكر أنها عين كثيرة المياه ، ينبع منها الماء بقوة ، وهى أشهر عيون سيوة .

ولاشك أن من يطلع على أمر هذه العين لا يتردد فى أنها العين الحمئة أو الحامية التى ذكر القرآن الكريم أن ذا القرنين وصل إليها فى سيره إلى مغرب الشمس ، لأن عين الشمس فى جهة المغرب كتلك العين ، وهى عين حامية مثلها ، وسكانها الأمونيون فى أعشاشهم يشبهون فى جهلهم وتأخرهم فى الحضارة القوم الذين ذكر المفسرون أنهم كانوا عند تلك العين الحمئة أو الحامية .

وهذا في اعتقادي هو التفسير الصحيح لتلك العين ، لا ما اضطرب فيه أولئك المفسرون ، حتى وصل الأمر ببعضهم أن يقول إنها هي المحيط الأخضر — الأطلنطي — ثم يزعم أن تسميته عينا مع عظمه مما لا بأس به ، لأنه بالنسبة إلى عظمة الله تعالى كقطرة ، وهذا زعم لا يمكن أن نقبله ، لأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب ، وهي لا تسمى مثل هذا عينا ، وإنما تسميه بحراً

ويبقى علينا بعد هذا أن نحلّ ما يَرِدُ على هذا من إشكال في قوله تعالى (وجدها تغربُ في عينٍ حمئةٍ) لأن ظاهره يفيد أن الشمس تغرب في تلك العين مع أنها لا تغرب فيها ، وإنما هي تدور حول الأرض أو تدور الأرض حولها ، على الخلاف في ذلك بين علماء الهيئة ولا شك أنه لا ينفع في حل هذا الإشكال ما يذهب إليه المفسرون من أن المراد أنه وجدها في مرأى عينه تغرب في تلك العين ، فهو عندهم فيما يخيّل للناظر من بُعْدٍ لا على الحقيقة ، لأن هذا إنما يمشي على ما زعموه فيها من أن المراد بها المحيط الأخضر ، وقد ذكرنا أنه تفسير غير صحيح ، ولأنه قال (وجدها) ولم يقل خيّل اليه ، كما قال فيما جاء به سحرة فرعون في الآية — ٦٦ — من سورة طه (يُخَيَّلُ إليهِ من سحرِهِمْ أنها تسعَى) ولأنه لم يثبت في التاريخ الصحيح أن الإسكندر المقدوني — وهو ذو

القرنين – قد وصل في سيره غرباً إلى المحيط الأخضر ، وإنما كان آخر ما وصل اليه في ذلك هو سيوة مصر كما سبق .

وعندي أنه لا ينفع في حل ذلك الإشكال إلا ما ذهب اليه ذلك العالم الأندلسي العظيم أبو محمد علي بن حزم ، فإنه لم يرض أن يفهم ذلك على ما لا يوافق علم الهيئة ، ولم يجار من سبقه في أن معنى الآية أن غروب الشمس كان في تلك العين ، على أن قوله تعالى (في عين حمئة) متعلق بقوله (تغرب) بل ذهب الى أن معناها أن ذا القرنين كان في تلك العين حين انتهى الى أوائل بلاد المغرب ، وهى التى تشتمل على برقة وتونس والجزائر ومراكش ، وكانت آخر ما يعرف من الأرض في جهة المغرب ، فشاهد الشمس تغرب وهو يغتسل في تلك العين ، ويكون قوله تعالى (في عين حمئة) متعلقاً بقوله (وجدها) لا بقوله (تغرب) كما جرى عليه جمهور المفسرين .

ونحن نذهب إلى ما ذهب اليه ذلك الإمام العظيم في حل ذلك الإشكال ، بل ما يذهب اليه في ذلك ألزم لتفسيرنا في العين الحمئة من غيره ، فهو في الحقيقة جزء من تفسيرنا ، ولو أن ذلك الإمام اطلع على التاريخ الصحيح لذى القرنين لذهب في تفسير تلك العين الى مثل ما ذهبنا اليه ، ليتفق القرآن وعلم التاريخ في ذلك ، كما اتفق هو وعلم الهيئة فيما ذهب إليه فيما سبق .

وإنى مع اعتقادى بصحة ما ذهبت إليه فى تلك العين أدعو علماءنا إلى اظهار رأيهم فيه ، فإذا ثبت عندهم بعد البحث صحة ماذهبت اليه فيها كان ذلك من فضل الله تعالى ، وهو ذو الفضل العظيم .

٢) العين الحمئة فى القرآن : رد على رد :

كان لدعوتى من يطلع على مقالى — العين فى قصة ذى القرنين هى عين الشمس بسيوة — إلى النظر فيه أثرها فى نفوس من اطلع عليه ، فكان منهم من أعجبه هذا الرأى ، ومنهم من أنكره ، وقد قرأت فى البلاغ الأسبوعى عدد — ٦٧ — ما كتبه بعض المدرسين الأفاضل بالمدارس الأميرية فى الرد على ما ذهبت إليه من أن العين الحمئة فى القرآن الكريم هى عين الشمس بسيوة ، لأن هذا يتوقف فى نظره على أن يكون ذو القرنين هو الإسكندر المقدونى ، مع أن هذا غير ممكن من وجوه :

أولها : أن كلمة — ذو — عربية والإسكندر المقدونى يونانى ، وقد شاعت فى ألقاب ملوك اليمن ، فيكون ذو القرنين منهم ، وهو الصعب بن الرائش .

وثانيها : أن ذا القرنين كان ملكا صالحاً تقياً ، وقيل كان نبياً ، والإسكندر المقدونى ختم حياته بالفجور والانهماك فى الملذات ، وقد

بلغ من أمره أنه ادعى أنه ابن الإله ، ودعا قومه أن يعبدوه .

وثالثها : أن ذا القرنين هو الذي بنى سد يأجوج ومأجوج كما صرح به القرآن الكريم ، ولم يرد في تاريخ الإسكندر المقدوني أنه بنى ذلك السد .

ورابعها : أن ذا القرنين ذهب إلى تلك العين الحمئة محارباً كما يفيده ظاهر القرآن الكريم ، والإسكندر المقدوني ذهب إلى سيوة زائراً لمعبد الإله — جوبيتر أمون — ليشكره على انتصاراته في حروبه ، وفوزه فيها على خصومه .

وهذا هو أهم ما اعتمد عليه ذلك الأستاذ الفاضل في إنكار أن يكون ذو القرنين هو الإسكندر المقدوني ، وإنه ليكفيني في رد هذا أن حمل ذي القرنين على الإسكندر المقدوني مذهب كثير من المفسرين ، وهو عندي المذهب الصحيح في ذلك ، لأنه لا يمكن أن يكون ذو القرنين صاحب ذلك الملك العظيم في أمم الأرض شرقها وغربها ، ثم لا يكون له ذكر في تاريخ تلك الأمم ، وهذا الاعتراض القوي لا يمكن أن يَرِدَ على من يذهب إلى أنه الإسكندر المقدوني ، لأن تاريخه معروف عند تلك الأمم ، واتساع ملكه في الشرق والغرب معروف أيضاً ، ولا يمكن أن يكون ذو القرنين من ملوك اليمن كما ذهب إليه بعض المفسرين ، لأن ملوك اليمن على الإطلاق لم يجاوز ملكهم بلاد العرب ، وهذا هو

الصحيح في أمرهم ، ولا اعتداد بما يزعمه فيهم عرب اليمن ، لأنه من تقاليهم في مفاخرة المضريين بعد الإسلام ، فلما فاخرهم المضريون بملوكهم الأمويين والعباسيين ، فاخروهم بملوكهم الحميريين ، وبالغوا في اتساع ملكهم ، ليكون مضاهيا لملك المضريين بعد الإسلام .

فأما تلك الوجوه المذكورة في إنكار أن يكون ذو القرنين هو الاسكندر المقدونى فليست من القوة بحيث يراها الأستاذ ، أو تضعف ذلك المذهب الصحيح في ذى القرنين . والجواب عن الوجه الأول أنه لا شيء في أن يلقب العرب ذلك الملك اليونانى بذلك اللقب العربى كما لقبوا الملك سابور الفارسى بمثل ذلك اللقب ، فسموه سابور ذا الأكتاف ، لأنه سار في جيش إلى نواحى العرب الذين كانوا يعيثون في الأرض ، فقتل من قدر عليهم ، ونزع أكتافهم ، وقد كان الإسكندر المقدونى يلقب بذى القرنين ، لأنه كان بتاجه قرنان ، وقد عثر في عصرنا على نقود مضروبة في عهده ، فوجد فيها صورته والتاج بقرنيه على رأسه ، وقد مر الإسكندر على العرب في سوريا والعراق ، فعرفوه بهذا اللقب ، وغلب عندهم على اسمه ، كما غلبت عندهم ألقاب كثيرة على أسمائها .

والجواب عن الوجه الثانى أن القرآن الكريم كما ذكر الأستاذ محمد

فريد وجدى فى دائرة المعارف لم يذكر شيئاً عن صلاح ذى القرنين وتقواه ، وإنما يذكر هذا المفسرون ، وليس فى القرآن إلا أن الله مكّن له فى الأرض كما مكن لغيره من الملوك . وأما قوله تعالى فى الآيات ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ — من سورة الكهف (قلنا ياذا القرنين إمّا أنْ تعذبَ وإمّا أنْ تتخذَ فيهمْ حسناً ، قالَ أمّا مَنْ ظلمَ فسوفَ نعذبهُ ثمّ يردُّ إلى ربّهِ فيعذبهُ عذاباً نُكراً ، وأمّا مَنْ آمنَ وعملَ صالحاً فلهُ جزاءً الحسنَى وسنقولُ لهُ مِنْ أمرِنا يسراً) فلا يدل على أنه كان نبياً يوحى إليه ، وإنما هو مثل قوله تعالى فى الآية — ٦٨ — من سورة النحل (وأوحَى ربُّكَ إلى النحلِ) ولا يدل على أنه كان يدعو إلى الإيمان الذى كان يدعو إليه الأنبياء ، وإنما الإيمان فى الآية عبارة عن الخضوع له ، والإذعان لملكه ، لأنه ورد فيها مطلقا ، ولم يقيد بأن يكون إيماناً بالله تعالى .

على أنى أشك كثيراً فيما ذكره أولئك المؤرخون فى خاتمة حياة الإسكندر ، لأن هذا بعيد على ذلك الملك العظيم الذى كان تلميذاً لأرسطو فيلسوف اليونان ، وكان أرسطو كالوزير له فى ملكه ، وكان دائم الاتصال به فى حروبه ، يبعث إليه أخبارها ويرسل إليه مايفيده فى بحوثه من آثار البلاد التى يفتحها ، ولو كان فى آخر حياته هو ذلك

الطاغية الظالم لما احتفلت الأمة اليونانية بجثته بعد وفاته ، فقد نقلتها من بابل إلى الاسكندرية فى احتفال عظيم لم يسبق مثله لملك ، وبكاه كل الذين عرفوه من الغالبين والمغلوبين ، حتى إن أم داريوس ملك فارس لم تبق بعده إلا قليلا ، ثم ماتت حزناً عليه ، مع أنه قتل ابنها وسلبه ملكه . ولا يزال اليهود والمسيحيون يعتقدون أنه كان مؤيداً بروح من الله ، وقد أخبره جدعيا الكاهن عند ما وصل إلى أورشليم بما فى الأسفار المقدسة من البشارات به ، فسر بذلك سروراً عظيما ، وأكرم أمة اليهود ، وأظهر كثيراً من الاحترام لدينها ، وقال يوسويه : إن الله أراد يبعث الإسكندر أن يجمع بين الشرق والغرب ، ليمهد السبيل أمام الإنجيل والمسيح .

والجواب عن الوجه الثالث أن سد يأجوج ومأجوج لم يكن إلا حصنا من الحصون الحربية ، وقد انتهى الإسكندر المقدونى فى فتوحاته إلى الهند ، وأقام فيها حصوناً كثيراً تقيها شر هجمات الأمم التى كانت تفسد فى تلك الجهات ، وهى أمم الترك التى منها يأجوج ومأجوج ، وقد ذكر ابن العبرى المؤرخ السريانى أن الاسكندر المقدونى هو الذى بنى سد يأجوج ومأجوج ، وأنه شرع بعده فى بناء السد الأعظم بمدينة باب الأبواب ، فوضع له أساساً عظيما ، وقد بحث عنه ملوك الفرس

حتى عثروا عليه ، وبنوا عليه ذلك السد الذى فرغوا منه فى عهد كسرى أنو شروان .

والجواب عن الوجه الرابع أن الاسكندر قد ذهب إلى سيوة زائراً وفاتحاً ، ولم يذكر القرآن الكريم أنه حارب سكانها ، حتى ينافى ما ثبت فى التاريخ أنه لم يحارب أحداً فيها .

فإذا أضفنا إلى هذا كله أن اليهود الذين سألوا عن ذى القرنين لا يعرفون إلا أنه الأسكندر المقدونى كان ذلك قاطعاً فى صحة مذهب من يرى ذلك من المفسرين ، وفى أن العين الحمئة الواردة فى قصة ذى القرنين هى عين الشمس بسيوة .

٣) عين الشمس بسيوة تعرف الآن بعين الجاموس :

ذكرت فيما سبق أن عين الشمس لاتزال موجودة بسيوة ، وقد قرأت بعد ذلك فى كتاب - المطالعة للمدارس الثانوية - أنه يوجد بسيوة عين ماء تسمى عين الجاموس وهى عين حارة قد تكون عندى عين الشمس القديمة ، أو العين الحمئة الواردة فى القرآن الكريم ، أو عيناً أخرى غيرها ، وفى هذا على كل حال تأييد لما ذهبت إليه من جعل سيوة مكاناً لتلك العين التى اضطرب المفسرون فى تعيين مكانها ، ولم يكن هذا إلا لعدم اطلاعهم على خفايا التاريخ القديم ، وعدم إحاطتهم بتاريخ الأمم البعيدة عنهم .

ولا يزال عند أهل سيوة أثر من اعتقادهم في عين الشمس يعتقدونه في عين الجاموس ، فمن غريب عاداتهم أن المرأة عندهم إذا توفى زوجها تحبس في حجرة مظلمة ، فلا ترى أحداً ولا يراها أحد غير الخادم التي تقدم إليها طعامها وشرابها ، وتمكث على هذا الحال إلى أن تنقضي عدّتها الشرعية ، وهي أربعة أشهر قمرية وعشرة أيام ، والسبب في هذه العادة أنهم يعتقدون أن عين المرأة في هذه العِدّة تكون شريرة مؤذية ، فإذا وقعت على إنسان رجلا كان أو امرأة أصابه الأذى ، وحل به الضرر

فإذا انقضت عدة هذه المرأة خرجت من سجنها ليلا ، ويكون أمامها مناد يحذّر الناس شرها والخروج في طريقها ، فإذا سمع الناس هذا النداء تخلّوا عن الطريق واختفوا في منازلهم ، أو توغلوا في الخلاء بعيداً عنها ، فتذهب الى عين الجاموس في شرق بلدتهم ، وهناك تغتسل فيها فيغسل معها ذلك الضرر ، ويذهب من عينها ذلك الأذى والشر ، وتعود الى مخالطة الناس كما كانت قبل أن يموت زوجها ، ولا يتحاماها أحد بعد اغتسالها في تلك العين .

ولا شك أن تقديس أهل سيوة لعين الجاموس بهذا الشكل إنما هو أثر من تقديس أسلافهم لعين الشمس ، وقد تحول الى هذا الشكل بعد أن تحولت عاداتهم بطول الزمان ، وأصبحوا يدينون بالإسلام بعد الوثنية .

ولا شك أيضا بعد هذا في أن حديث العين الحمئة أو الحامية التي وصل إليها ذو القرنين في جهة المغرب أصبح مؤيدا بوروده في القرآن الكريم ، وبالنص عليه في التاريخ القديم ، وببقاء أثرها إلى عصرنا بسيوة ، وهذا في نظري أعظم كشف تاريخي ديني وفقني الله تعالى إليه بعنايته ، ولو أن الذي اهتدى إليه بعض علماء أوربا لقدسناه وقدسنا ، وهللنا بحمده وسبحنا ، وكيف أطمع بهذا في بلد ذل أهله ، وامتلأ بعضهم حقدا على بعض ، فالفضل فيها منكور ، والحق فيها مجحود ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؟

قدماء المصريين

فى التوراة والقرآن

ذكر الكاتب الأديب سلامة موسى فى مجلته الجديدة أن التوراة تصف فراعنة مصر بالظلم والعتوّ والجبروت ، لأنها وهى كتاب العبرانيين الذى يبين عقائد دينهم قد غُذيت بذكر تاريخ ملوكهم وحروبهم وغير ذلك مما ليس له علاقة بالدّين ، فإذا تحدثت عن المصريين وفراعنتهم تنزع تلك النزعة السياسية التى نراها بين عدوين ، فنجد اللعنات وألفاظ العداوة فى مكان الاحترام والتوادّ بين الأمم ، وقد نجحت التوراة فى إساءة سمعة المصريين وإظهارهم بمظهر الطغيان ، ولكن تلك الدعاية التى قامت بها فى ثلاثة الآلاف من السنين الماضية أخذت تنهدم الآن بما كشفه العلماء الباحثون من تاريخ الفراعنة ، فيمكن المصرىّ الآن أن ينظر نظرة إنصاف إلى تاريخ أجداده ، فيرى أنهم إذا كانوا قد طغوا واستبدوا مع العبرانيين فإنما فعلوا ذلك فى مصر وحيث كان المصرى يعيش فى بلاده ؛ بينما كان العبرانى دخيلا أجنبياً ، وكل ماحدث من ذلك ليس أكثر من أن المصريين طردوا الأجانب من بلادهم . ويمكن المصرىّ أيضا ان ينظر نظرة

إنصاف فيرى أن أولئـك الفراعنة الملعونين فى التوراة كانوا أسمى ملوك يحكمون أرقى أمة حضارة وثقافة وأخلاقا . و يمكنه أيضاً أن يقرأ المؤلفات الحديثة فى تاريخ قدماء المصريين لبرستو وسمث و بترى وغيرهم فلا يشعر بأن الفراعنة أسلافه كانوا عاراً عليه كما يشعر إذا قرأ التوراة ؛ بل يشعر بأنهم هم الذين بنَوْا صرحا من المجد لم تبلغه أمة قديمة ، وأن له الحق أن يفخر بهم على جميع أمم العالم .

وقد فات الأستاذ سلامة موسى أن يذكر أن القرآن أتى من ذلك بما أتت به التوراة ، ولـكنه خشى أن يؤلم المسلمين بذلك لأنهم جمهرة المصريين ، ولم يخش أن يؤلم اليهود لأنهم أقلِّية فى مصر . وهو يتجنَّى بذلك على التوراة والقرآن ، لأنهما لم يذما فراعنة مصر على الإطلاق ، وقد ذكرا فرعون يوسف وما كان من تمكينه له فى أرض مصر ، و إيوائه لأبيه يعقوب وأبنائه ، و إقطاعهم أرض جاسان فى مكان مديرية الشرقية الآن ، و إنما ذما فرعون موسى وحده لأنه كان ملكا جباراً عاتياً ، وقد بلغ من أمره مع العبرانيين أنه كان يقتِّل أبناءهم و يستحيي نساءهم من غير ذنب جنوه ، وكان يسخرهم فى أشق الأعمال ، و يعاملهم بأحط ما يعامل به الحيوان الأعجم .

وقد تجنَّى الأستاذ سلامة موسى أيضاً على الحقيقة حينما ذكر أن

المصريين لم يعملوا أكثر من أنهم طردوا الأجانب من بلادهم . لأن الحقيقة هي أن الله تعالى أراد أن ينقذ العبرانيين من ظلم فرعون ، فأرسل إليه موسى وهارون ليطلقهم من أسره ، ويتركوا مصر إلى فلسطين التي وعدهم بها ، فأبى فرعون ذلك ، ولم يؤمن بموسى وهارون ولا بالله تعالى ، ولم تؤثر فيه تلك المعجزات التي أرسل بها موسى ، فلم يجد إلا أن يهرب بقومه ليلا ، فلما علم فرعون بهروبهم سار في أثرهم ليردّهم إلى حياة الاسترقاق والذل ، وقد أدركهم وهم يعبرون البحر فعبره خلفهم ، فأغرقه الله بجنوده ونجّى موسى وقومه ، فأين الطرد الذي ذكره الأستاذ سلامة موسى من ذلك التشبث ببقاء العبرانيين في مصر ؟

ولا شك بعد هذا أنه لا يوجد الآن مصري منصف يقرّ فرعون على ذلك الظلم الذي كان يفعله مع العبرانيين ، أو يقره على تعنته في رفض طلب موسى إليه ، وقد كان من حقه وقومه أن يهاجروا من مصر بعد أن أساءت ضيافتهم ، ولم ترع غربتهم .

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القِلَى متحوَّلُ

أما مدنية مصر القديمة وحضارتها فإن التوراة والقرآن لم ينتقصا من أمرها شيئاً ، بل أشار القرآن إلى عظمتها وقوة ملك الفراعنة

بمثل قوله حكاية عن فرعون فى الآية — ٥١ — من سورة الزخرف (أليس لى ملكُ مصرَ وهذهِ الأنهارُ تجرى من تحتى) وقوله أيضا بعد غرق فرعون وجنوده فى الآيات — ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ من سورة الدخان (فأخرجناهم من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين) ولعله يشير بكلمة كنوز إلى تلك الكنوز والآثار العظيمة التى يعثر عليها الباحثون فى آثار مصر ، ويشيدون من أجلها بعظمتها فى تلك العصور القديمة .

وإذا كان القرآن الكريم يشيد بعظمة مصر فى تلك القرون فإنه لاحرج علينا فى الإشادة بذكرها ، ولا شىء علينا فى الاعتزاز بها ، كما يعتز كل خلف بآثار سلفه ، ويذكره للعظة والذكرى ، لا لتلك العصبية الآثمة التى يتجنى فيها الأستاذ سلامة موسى على الحقيقة .

ويجب ألا ينسينا هذا تاريخ بنى إسرائيل بعد أن حرفوا دينهم ، ووقعوا فيما وقع فيه غيرهم من الظلم والطغيان ، حتى استحقوا غضب الله عليهم ، فضرب عليهم الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة ، وشتتهم فى أقطار الأرض عقابا لهم فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى . نعم يجب ألا ينسينا هذا كله تاريخهم المجيد على عهد موسى عليه السلام ، وعلى عهد

داود وسليمان عليهما السلام ، إذ كانت شعوب الأرض تتردى في وثنيات جاهلة آثمة ، بينما كانوا وحدهم بين شعوب الأرض يأخذون بدين التوحيد الذى كتب له الظهور بفضلهم على أديان العالم ، بل يجب أن يكون لكلمة الحق سلطانها على كل شخص ، وأن يخضع لحكمها ولو كان على أمته أو نفسه ؟

من شئون محمد فى القرآن

من علامات الرسل الصادقين أن يشعروا فى نفوسهم بكمالهم ، ويجدوا من فضل الله عليهم ما يغنيهم عن الدعوى التى يدارون بها نقصهم ، ويؤثرون بها فى نفوس أهل الغفلة من العامة ، ومن علامات الرسل والأولياء الكذبة أن يشعروا فى نفوسهم بنقصهم ، ويجدوا من شعورهم بنقصهم وحرمانهم من فضل الله ما يحملهم على المبالغة فى الدعوى ، والإفراط فى الإعلان عن النفس ، ليعوضوا بذلك مايشعرون به من النقص ، ويؤثروا فى نفوس أهل الغفلة من العامة ، ولكنهم يقيمون من هذا دليلا على كذبهم لدى الخاصة من الناس ، لأنهم يغرقون فى الدعوى عن نفوسهم ، حتى يصل بعضهم بها إلى مرتبة الحق جل شأنه ، أو يقول كما قال بعض شعرائهم :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدناَ
فإذا أبصرتنى أبصرتهُ ... وإذا أبصرته أبصرتنا

وقد ورد ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ، تارة باسمه ، وتارة بوصفه ، فورد فيه غير مقترن بشىء من الإغراق فى الدعوى ، والمبالغة فى الإعلان عن النفس ، مما يدل على أن هذا القرآن منزّل

من مقام أعلى من مقامه ، فلا يذكر له عظمة بجانب عظمته ، ولا يقترن ذكره بما كان يقترن به لو كان هذا القرآن من عنده ، لأنه لا يكون فيه إلا هو ونفسه ، فيخلو له الجو للتحدث عنها ، والإغراق فى الدعوى التى يدارى بها خداعه .

لقد ورد ذكر محمد صريحاً فى الآية الأخيرة من سورة الفتح (محمدٌ رسولُ اللهِ والذينَ معهُ أشداء على الكفارِ رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغونَ فضلاً مِنَ اللهِ ورضواناً سيماهُم فى وجوهِهِم مِنْ أثرِ السجودِ ذلكَ مثلهمْ فى التوراةِ ومثلهمْ فى الإنجيلِ كزرعٍ أخرجَ شطأهُ فآزره فاستغلظَ فاستوى على سوقهِ يعجبُ الزراعَ ليغيظَ بهم الكفارَ وعدَ اللهُ الذين آمنوا وعملُوا الصالحاتِ منهمْ مغفرةً وأجراً عظيماً) . فلم يزد أمره فى هذه الآية على وصفه بأنه رسول الله وأنه هو والذين معه قائمون بأمر ربهم ، يجاهدون فى سبيله ، ويتعاونون فيما بينهم على طاعته ، فلا يجاوز أمرهم فى الآية أمر البشر ، ولا ينسب إليهم شىء يأباه العقل .

وكذلك ورد اسمه صريحاً فى الآية — ٤٠ — من سورة الأحزاب (ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ مِنْ رجالكمْ ولكنْ رسولَ اللهِ وخاتمَ النبيينَ وكانَ اللهُ بكلِّ شىء عليماً) فلم يزد أمره فيها على وصفه بأنه

رسول الله وخاتم النبيين أى آخرهم ، وهذا هو الواقع فى أمره ، فلا إغراق يعلو على هذا الواقع ، ولا غلوّ فى تعظيمه يأباه العقل .

وكذلك ورد اسمه صريحا فى تبشير الإنجيل به فى الآية — ٦ — من سورة الصف (وإذْ قالَ عيسَى بنُ مريمَ يا بنى إسرائيلَ إنّى رسولُ الله إليكمْ مصدّقا لِمَا بينَ يدىَّ مِنَ التوراةِ ومبشّراً برسولٍ يأتى مِنْ بعدِى اسمهُ أحمدُ فلمّا جاءهمْ بالبيناتِ قالُوا هذَا سحرٌ مبينٌ) فلم يزد أمره فيها على أنه رسول مبشّر به من عيسى بن مريم ، وليس فى هذا إغراق ولا غلو ، وإنما هو الواقع لاغير .

ثم جاء الأمر بالصلاة عليه فى الآية — ٥٦ — من سورة الأحزاب (إنَّ اللهَ وملائكتهُ يصلّونَ على النبىِّ يأيّها الذينَ آمنُوا صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً) . فظهر فيها بمظهر من هو فى حاجة إلى صلاة الله وملائكته عليه ، وإلى صلاة المؤمنين وتسليمهم عليه أيضا ، والصلاة من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن المؤمنين تضرع ودعاء ، وليس فى هذا شيء من الغلوّ والإغراق فى أمره .

ثم أراد المشركون من قومه أن يذهبوا به إلى تلك الناحية من من الإغراق ، فقال الله تعالى الآيات — ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ — من سورة الإسراء : (وقالُوا لنْ نؤمنَ لكَ حتّى تفجرَ لنَا مِنَ

الأرض ينبوعاً ، أو تكونَ لكَ جنةٌ مِنْ نخيلٍ وعنبٍ فتفجرَ الأنهارَ خلالها تفجيراً ، أو تسقطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسفاً أوْ تأتيَ باللهِ والملائكةِ قَبيلاً ، أو يكونَ لكَ بيتٌ مِنْ زخرفٍ أو ترقَى فى السماء ولنْ نؤمنَ لرقيكَ حتّى تنزّل علينا كتاباً نقرؤهُ قُلْ سبحانَ ربِّي هَلْ كنتُ إلاّ بشراً رسولاً) فلا يذهب معهم فيما يريدونه له من ذلك إلإغراق والغلو ، ولا يصف نفسه فى ذلك إلا بأنه بشر رسول ، لا أكثر ولا أقل .

ثم يذكر الله تعالى طائفة من أنبيائه ورسله فى الآيات — ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨ من سورة الأنعام ، ثم ينوّه بشأنهم ويربط أمره بأمرهم ، فيقول : (أولئكَ الذينَ آتيناهم الكتابَ والحكمَ والنبوةَ فإنْ يكفرْ بها هؤلاءِ فقدْ وكلّنا بها قوماً ليسُوا بها بكافرينَ ، أولئكَ الذينَ هدَى اللهُ فبهداهمُ اقتدهْ قلْ لا أسألكمْ عليهِ أجراً إنْ هوَ إلا ذكرَى العالمينَ) . فينوه بشأنهم ذلك التنويه العظيم ، أما هو فيأمره بالاقتداء بهداهم ، ولو كان غيره من الأنبياء الكذبة لكان أول مايخطر بباله بعد ذكرهم أن يفضل نفسه عليهم ، ليخدع بذلك العوام ويدارى به ما يشعر به من نقص عنهم .

بل يبلغ من أمره فى القرآن أن يقال له فى الآية — ٩٤ — من

سورة يونس : (فإنْ كنتَ في شكٍّ مما أنزلنا إليكَ فاسألِ الذين يقرؤونَ الكتابَ منْ قبلكَ لقدْ جاءكَ الحقُّ منْ ربكَ فلا تكونَنَّ منَ الممترين) فيأمره أن يسأل في أمره أهل التوراة والإنجيل إن شك فيه، ليعلن أنه بشر مثلهم، وأنه لا يحط من قدره أن يسألهم في هذا أو نحوه، لأنه ليس بإله أو ملك من الملائكة أو غير ذلك مما يدعيه المدعون الكذبة، ليعلوا بنفوسهم على الناس، ويوهموهم أنهم ارتفعوا عن مرتبة البشرية، وصاروا إلى مرتبة أعلى منها.

بل يخاطبه بأكثر من هذا في الآيات ٦، ٧، ٨، من سورة الضحى فيقول فيها (ألمْ يجدكَ يتيماً فآوَى ووجدكَ ضالاً فهدَى، ووجدكَ عائلاً فأغنى) فيذكره بحاله قبل الرسالة وبعدها، ليكون ماضيه على ذكر منه، فلا ينساه في الحاضر والمستقبل، ولا يظن أنه قد علا بالرسالة عن شأن البشر، ليهضم من نفسه ما يهضم، ويلين من أمرها ما يلين، فلا تتعاظم في نسب، ولا تتعالى في علم، ولا يأخذها شيء من الكبر.

بل يأمره في الآية — ٢٨ — من سورة الكهف أن يضع نفسه في مرتبة العامة الذين اتبعوه، ولا يتطلع إلى من فوقهم من المتعاظمين والمتكبرين، فيقول في هذه الآية : (واصبرْ نفسكَ معَ الذينَ يدعونَ ربهمْ بالغَداةِ والعشيِّ يريدونَ وجههُ ولا تعدُ عيناكَ عنهمْ تريدُ زينةَ

الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) فيضع نفسه فى تلك البيئة الخاضعة المتواضعة ، ليكون مثلها خاضعاً متواضعاً ، ولا يدخل فى نفسه شىء مما يدخل فى نفوس أولئك المتعاظمين المتكبرين .

ثم يعاتبه لأنه انصرف مرة إلى دعوة أولئك المتعاظمين المتكبرين ، فجاءه واحد من عامة الناس يسترشده فى شىء من دينه وهو مشتغل بدعوتهم ، فعبس فى وجهه لأنه قطع عليه حديثه معهم ، فيبلغ فى هذا العتاب ما يبلغ ، وينزل فيه سورة خاصة به اهتماما بشأنه ، وهى سورة عبس التى يقول فى الآيات الأولى منها : (عبسَ وتولّى ، أنْ جاءهُ الأعمَى ، وما يدريكَ لعلّه يزّكّى ، أو يذّكّرُ فتنفعهُ الذكرَى ، أمّا مَنْ استغنَى ، فأنتَ لهُ تصدّى ، وما عليكَ ألاّ يزّكّى ، وأمّا مَنْ جاءكَ يسعَى ، وهُوَ يخشَى ، فأنتَ عنهُ تلهّى) ، فهذا العتاب لا يمكن أن يكون منه ، وإنما هو من الله تعالى ، لأنه لو كان الأمر فى هذا أمر محمد وحده لما رأى شيئا فيما فعله من عبوسه فى وجه ذلك الذى قطع عليه حديثه مع أولئك المتعاظمين ، لأنه من أتباعه ، وإيمانه به يهوّن عليه ذلك العبوس ، ولا يجعل له أثراً فى نفسه ، فلا يحتاج إلى ترضية بمثل ما استرضى به فى تلك السورة .

فهذه بعض شؤون النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم ، وهي تدل أقطع دلالة على أنه كان أمام إرادة أعلى من إرادته توجهه في حياته ، ولا تراعى ما يراعيه البشر حين يتحدثون عن نفوسهم ، فتغلبهم الطبيعة البشرية ولو في بعض ما يتحدثون ، وتنحرف بهم إلى شئ غير ذلك السَّنَن ، وتسير بهم في أسلوب يعطى نفوسهم حظها ، ويرضى طبيعتها البشرية ، فالطبع يغلب التطبُّع ، وقديما قال الشاعر :

ومهما يكن عنــد امرىء من خَلِيقَةٍ

وإن خالها تخفى على الناس تُعْلَمِ

ولكنه قرآن كريم تنزيل من حكيم حميد ، لا يرفع شيئاً من شأن محمد ، ولا يعلو به على شأن غيره من البشر ، وإنما هو صاحب رسالة تدعو إلى التواضع ، فيأخذه بذلك في القرآن ليكون قدوة فيه لغيره ، ولا يكون شأنه مثل شأن من يقول :

اعملْ بقولي وإنْ قصَّرت في عملي

ينفعْك قولي ولا يضررْك تقصيري

وإنما هو تشريع بالعمل قبل القول ، لأنه لا قيمة لقول بلا عمل ؟

فواتح القرآن والتوراة والإنجيل

لا يهمنا في هذا الموضوع البحث في صحة التوراة الموجودة الآن عند اليهود، ولا في صحة الإنجيل الموجود الآن عند النصارى، وإنما يهمنا الموازنة بينهما وبين القرآن فيما يمكن الموازنة بين الثلاثة فيه، ليظهر فضل القرآن جليًّا واضحاً، وليعلم المخالفون أنه الكتاب الذي تناهى إليه الفضل، فكان خاتمة الكتب السماوية، وكان الرسول الذي بعث به خاتم الرسل

والكتاب كما يقرأ من عنوانه يقرأ من فاتحته أو مقدمته، لأنها تبيّن الطريق الذي يسير فيه، وتشير إلى المقصد الذي يراد منه. فتنطوي معانيه فيها إجمالا، ويلم القارىء بمقاصده فيها إلماماً، وبهذا يقرأ منها الكتاب كما يقرأ من عنوانه، ويمكن وزنه بها بين الكتب، ووضعه في المنزلة التي يستحقها بينها

فإذا بحثنا في التوراة من هذه الناحية وجدنا أولاً أنها كلمة عبرية معناها الشريعة. وأنها تشتمل على خمسة أسفار

(١) سفر التكوين: ويشتمل على تاريخ خلق العالم إلى موت يوسف عليه السلام

(٢) سفر الخروج . ويشتمل على تاريخ خروج بنى إسرائيل من مصر ، كما يشتمل على كثير من المسائل التشريعية والطقوس الدينية

(٣) سفر اللاويين . ويشتمل على الطقوس الدينية الخاصة بتقديم القرابين . وعلى طقوس الكهان من أبناء هارون عليه السلام

(٤) سفر العدد . ويشتمل على تاريخ خروج بنى إسرائيل من سيناء إلى شرق الأردن ، وعلى بعض الرسوم الخاصة بالطقوس والعبادات

(٥) سفر التثنية ، أى تثنية الشريعة بمعنى إعادتها مرة ثانية ، لأنه أريد من الشريعة فى هذا السفر تطهير الطقوس ، مع تعيين مكان خاص — أرض موآب فى شرق الأردن .

وهذه هى فاتحة التوراة :

« فى البدء خلق الله السماوات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية . وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه ، وقال الله ليكن نور فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن . وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهارا ، والظلمة دعاها ليلا ، وكان مساء وكان صباح يوما واحدا ، وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه ، وليكن فاصلا بين مياه ومياه ، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى

وفق الجلد ، وكان كذلك ، ودعا الله الجلد سماء ، وكان مساء ، وكان صباح يوما ثانيا » الخ الخ

وإذا بحثنا فى الإنجيل من تلك الناحية وجدنا أن لفظ الإنجيل لفظ يونانى معناه خبر سار أو بشارة ، وقد سمى بذلك لأنه عند النصارى يخبر بمجىء يسوع المسيح إلى العالم ليخلص الخطاة الهالكين ، ويوجد الآن عندهم أربعة أناجيل :

(١) إنجيل مَتّىْ ، وهذه فاتحته :

« كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم ، إبراهيمُ ولد إسحاق ، وإسحاق ولد يعقوب ، ويعقوب ولد يهوذا وإخوته ، ويهوذا ولد فارص وزارح من تمار ، وفارص ولد حصرون » ثم يستمر فى سلسلة هذا النسب من إبراهيم إلي داود إلى يوسف النجار « رجل مريم التى ولد منها يسوع الذى يدعى المسيح » الخ الخ .

(٢) إنجيل مَرْقُس ، وهذه فاتحته :

« بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله — كما هو مكتوب فى الأنبياء : ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكى الذى يهىء طريقك قدامك ، صوت صارخ فى البرية أعدوا طريق الرب ، اصنعوا سبله مستقيمة ، كان يوحنا يعمّد فى البرية ويكرز بعمودية التوبة لمغفرة الخطايا ، وخرج

إليه جميع كورة اليهودية وأهل أورشليم ، واعتمدوا جميعهم منه فى نهر الأردن معترفين بخطاياهم ، وكان يوحنا يلبس وبر الإبل ومنطقة من جلد على حقويه ، ويأكل جراداً وعسلا برياً ، وكان يكرز قائلا : يأتى بعدى من هو أقوى منى الذى لست أهلا أن أنحنى وأحل سيور حذائه ، أنا عمدتكم بالماء ، وأما هو فيعمدكم بالروح القدس » الخ الخ

(٣) إنجيل لوقا ، وهذه فاتحته :

« إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداما للكلمة ، رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شىء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس ، لتعرف صحة الكلام الذى علمت به » الخ الخ

(٤) إنجيل يوحنا ، وهذه فاتحته :

« فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، هذا كان فى البدء عند الله ، كل شىء به كان ، وبغيره لم يكن شىء مما كان ، فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس ، والنور يضىء فى الظلمة ، والظلمة لم تدركه » الخ الخ

وإذا بحثنا القرآن من هذه الناحية وجدنا أن القرآن مصدر قرأ قرء

وقراءة وقرآنا بمعنى تلا ، وقد أطلق على الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه يقرأ ويتلى ويتكرر قراءته وتلاوته ، وقد خص بهذا الاسم تنويها بفضله ، وإشارة إلى أنه هو الذى يجب أن يقرأ ويتلى من بين الكتب ، وهذه هى فاتحته :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمدُ لله ربِّ العالمينَ ، الرحمنِ الرحيمِ ، مالكِ يوم الدِّينِ ، إيَّاكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ ، إهدنا الصراطَ المستقيمَ ، صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهمْ غيرِ المغضوبِ عليهمْ ولا الضَّالينَ)

وهى سورة خاصة من سور القرآن ، فنحن هنا أمام فاتحة حقيقية لكتاب ، وما أظن أن كتابا سبق القرآن بمثل هذه الفاتحة . فكان بهذا قدوة للكتب التى ظهرت بعده ، وأخذ المؤلفون فى كل الأقطار يقلدونه فى كتبهم ، وأخذ كل مؤلف منهم يضع فى أول كتابه مقدمة يحمد الله فى أولها كما حمده القرآن فى أول فاتحته ، ثم يظهر له الخضوع ويتوجه إليه بالاستعانة ليمده بعونه ، كما صنع القرآن سواء بسواء ، ثم يختمها ببيان مقصده من كتابه ويطلب من الله الهداية إليه ، كما صنع القرآن سواء بسواء ، وذلك نظام عجيب وترتيب بديع لم تصل إليه البشرية قبل القرآن ، وما كان لأمىّ مثل محمد صلى الله عليه وسلم أن يصل إليه بنفسه ، ولا أن يدرك ذلك الترتيب المنطقى الذى لم يكن للعرب عهد به

وقد أشارت هذه الفاتحة إلى أن القرآن يقصد منه بيان صراط مستقيم ، وتشريع دين قويم ، يخلص الشرائع السماوية من آثار الوثنية التي لحقت بها ، ويشرع للناس أوفى شريعة وأكملها ، وقد جاء القرآن كما أشارت إليه فاتحته ، وكما جاء في الآية — ٢٣ — من سورة الزمر (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) الآية . ليس فيه إلا بيان أصول الدين وفروعه ، وكل ما فيه من أمر ونهي ووعد ووعيد وأخبار وأحكام يسير في هذا السَّنَن ، ولا يحيد عنه أصلا ، لأن هذا السنن هو سنن الكتب السماوية ، وهو المقصود من إنزالها على الرسل الذين يختارون لها .

فالقرآن في هذا كتاب متشابه الأجزاء ، متناسق السُّوَر ، تتنوع أساليبه في تلك المقاصد ، وتفتنّ فيها فنّها المعجز ، ولا تحيد عن هذا إلى تدوين تاريخ بدء الخلق ، أو تاريخ شعب من الشعوب ، أو تاريخ رسول من الرسل ، لأن هذا ليس في شيء من وظيفة الكتب السماوية ، ولا يتوقف أمره على تنزيل سماوي حتى ينزل به ، وإنما هو في متناول البشر ، يصلون إليه باجتهادهم ، ويقفون عليه ببحثهم .

وقد عُنيت التوراة الموجودة الآن عند اليهود بتدوين تاريخ

الخليقة فيما عُنيت به ، وكان أول سِفْر من أسفارها فى ذكر تاريخ الخلق من أوله إلى موت يوسف عليه السلام ، وقد سارت أكثر كتب العهد القديم فى طريقتها ، فجمعت بهذا بين وظيفة التاريخ ووظيفة التشريع ، وهما وظيفتان مختلفتان ، لأن التاريخ من الوظائف البشرية ، والتشريع من وظيفة الرسل الذين يتلقونه عن الله تعالى .

فجاءت فاتحة التوراة مناسبة لجمعها بين تينك الوظيفتين ، مؤذنة بأنها كتاب تاريخ وتشريع معا .

وكذلك سارت الأناجيل الأربعة فى طريق التوراة ، وجاءت فواتحها مؤذنة بأن الغرض منها تدوين تاريخ يسوع المسيح ، ولم يكن تاريخ المسيح بحيث يحتاج إلى كتاب منزّل ، لأن أصحابه قد شاهدوا أقواله وأفعاله ، وعرفوا سيرته من أولها إلى آخرها ، ثم عرفها منهم من أتى بعدهم من أتباعهم ، ومثل هذا التاريخ يدوّنه البشر ، ولا يحتاجون فيه إلى توقيف من عند الله تعالى

وبعد فهذه ناحية من نواحى الموازنة بين القرآن والتوراة والأناجيل الأربعة ، عقدتها بين فواتحها لتنطق بما نطقت به من غير إسراف فى أمر الموازنة بينها ، ولا انحياز نحو القرآن بعاطفة

التدين به ، ليكون لها وقعها فى نفس كل منصف يريد الوصول إلى الحقيقة فى هدوء ، ولا يهمه أن يكون ما يصل إليه فى ذلك له أو عليه ، لأن الحقيقة لها سلطانها الذى تخضع له كل نفس تريد الهداية ، ولا تبغى الغلبة والتعصب ؟

وصف النساء في القرآن والشعر

جاء وصف النساء فى القرآن الكريم كما جاء فى الشعر ، ويكفى وجوده فيهما لعقد موازنة بينهما من ناحية موضوعه فيهما ومن ناحية أسلوبه .

ووصف النساء فى الشعر يقال له نسيب ، وهو من أهم أغراض الشعر ، وقد تناوله الشعراء فى الجاهلية والإسلام ، واختلفت مسالكهم فيه اختلافا كثيرا ، فكان منهم شعراء فساق لا يتورعون عن ذكر فسوقهن فى نسيبهم ، كما يقول امرؤ القيس :

فمثلكِ حبلى قد طرقت ومرضعٍ
فألهيتها عن ذى تمائمَ محولِ

ومنهم شعراء لايخرجون عن حدود العفة فى نسيبهم ، مثل كعب ابن زهير فى قصيدته — بانت سعاد — ولهذا لم يجد النبى صلى الله عليه وسلم حرجا فى سماعه منه .

والنسيب يقال له التشبيب ، وقد جاء فى القاموس أنه يقال نسب بالمرأة إذا شبب بها ، وبعض الناس يطلق عليه الغزل ،

والحق أن الغزل اسم لمحادثة النساء، والتغزل التكلف له. أما النسيب والتشبيب فشىء وراء ذلك، وليس من شرطه أن يكون فيه اجتماع ومحادثة للنساء، وإنما يكون بذكرهن ووصف محاسنهن، كما قال النابغة الذبياني:

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها
لم تؤذ أهلا ولم تفحش على جار
والطيب يزداد طيبا أن يكون بها
فى جيد واضحة الخدين معطار

ومثله كل ما يدخل فى شرح أحوال النساء من ظعنهن وإقامتهن، كما فى قول زهير بن أبى سُلمى:

تبصر خليلى هل ترى من ظعائن
تحملن بالعلياء من فوق جرثم
علون بأنماط عتاق وكلة
وراد حواشيها مشاكهة الدم

ومنها وصف الأطلال والديار بعد مغادرتهن لها، كما فى قول عنترة العبسى:

حييتَ من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

وكذلك قول زهير :

وقفت بها من بعد عشرين حِجة

فلأْياً عرفت الدار بعد توهُّم

أثافيّ سفعا في معرّس مرجل

ونؤياً كجـذم الحوض لم يتثلم

ومنها التشوق إليهن بحنين الإبل وغناء الحمائم ولمع البروق ولوح النيران وهبوب النسيم ، ومن هذا قول النابغة الذبياني :

إذا تغنّى الحمام الورق هيجني   وإن تغربت عنا أمّ عمارِ

ومنها ذكر المنازل والمياه التي نزلنها، والرياض التي حللنها ،ووصف مابها من خزامى وبهار وأقحوان وعرار ، ومن هذا قول زهير :

بكرن بكورا واستحرنَ بسحرةٍ

فهنّ ووادي الرسِّ كاليد للفمِ

فلما وردن الماء زرقا جمامُه

وضعن عصيّ الحـــاضر المتخيّم

وكذلك قول عنترة :

ولقد مررت بدار عبلة بعد ما   لعب الربيع بربعها المتوسّمِ

جادت عليه كل عين ثرّة   فتركن كل قرارة كالدرهم

سحًا وتسكابا فكل عشية ... يجرى عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس ببارح ... غرِداً كفعل الشارب المترنّم
هزِجا يحك ذراعه بذراعه ... قدح المكب على الزناد الأجذم

ولا شك أن تقييد القاموس للنسيب بأن يكون فى الشعر إنما هو مجاراة لما وقع منه فى عصر الجاهلية والعصور التى تلته ، ومراعاة للغالب فى أمره ، لا لأن هذا يدخل فى حقيقته ، لأنه ليس فى اشتقاق لفظ النسيب والتشبيب ما يجعله مختصا بالشعر ، وما يمنع وقوعه فى النثر ، فالنسيب نسيب أين كان فى شعر أو نثر مسجوع أو مرسل ، ولكنه لم يشتهر عند العرب إلا فى الشعر ، فكان هذا سببا فى تقييده به ، ولكن هذا لا يصح أن يمنع من إطلاقه على ما يجىء منه فى النثر

وقد جاءت أمثلة نادرة من النسيب النثرى ، ذكر بعضا منها الأستاذ زكى مبارك فى كتابه — النثر الفنى — ومنها قول أعرابى : دخلت بغداد فرأيت فيها عيوناً دعجا ، وحواجب زجًّا ، يسحبن الثياب ، ويسلبن الألباب .

ووصف أعرابى امرأة يحبها فقال : هى زينة الحضور ، وباب من أبواب السرور ، ولذكرها فى المغيب ، والبعد من الرقيب ، أشهى إلينا

من كل ولد ونسيب ، بها عرف فضل الحور العين ، واشتيق بها إليهن فى يوم الدين.

فهذا هو النسيب فى الشعر والنثر ، وهو لايخرج عن وصف النساء وما إليه من أحوالهن ، ولا غرض له إلا إشباع الشهوة ، أو الترويح عن النفس إذا اقتصد فى أمره ، وهو يختلف اختلافا كبيرا عما جاء من وصف النساء فى القرآن ، لأن القرآن سما به عن عبث الشعراء ونقصهم البشرى ، ورفعه إلى درجة لايذكر بجانبها نسيب الشعراء جميعا ، حتى أولئك الشعراء العذريين الذين يمتاز نسيبهم بالعفة والطهر ، وإنما نسبوا الى بنى عذرة لكثرتهم فيهم .

وهذا الاختلاف بين القرآن والشعر فى ذلك يرجع إلى اختلاف المقصد منه فيهما ، فالنسيب فى الشعر كان له المقام الأول عند الشعراء ، ولهذا كانوا يقدمونه أمام غيره من الأغراض كالمدح وغيره ، فيفتتحون كل قصائدهم به إلا فى النادر ، لما فيه من لهو النفس ، وارتياح الخاطر ، ولأن باعثه الفذ هو الحب ، وهو السر فى كل اجتماع إنسانى ،

والبدو أكثر الناس حبا ، لفراغهم وتلاقى قبائلهم المختلفة فى المصايف والمرابع . فإذا ماافترقوا ذكر كل إلف أليفه، واشتاق كل حبيب إلى حبيبته ، ثم اذا عادوا الى تلك الأماكن مرة اخرى هاج أشجانهم ما يرونه من آثار أحبابهم ، وجدد الذكرى عندهم مايشاهدونه من أطلال منازلهم .

فالنسيب فى الشعر غرض يقصد لذاته ، ويراد منه إشباع الشهوة البشرية بالخيال عند ماتصاب بالحرمان ، ولا تجد شبعها فى عالم الحس والواقع ، ولهذا كان النسيب فى الشعر لهوا وعبثا ، وليس له غاية شريفة يسمو إليها فى الحياة ، وإنما هو فسق وفجور أو بطالة وكسل ، وقد يصير الى يأس قاتل لاخير فيه عند أولئك العشاق من الشعراء العذريين ، فيصرفهم عن كل شىء فى حياتنا إلا الحديث عن حبهم ، ووصف يومهم ويأسهم، وكثيرا ما ينتهى ذلك اليأس إلى بجيعة من الفواجع فى نفوسهم أو عقولهم، فيذهبون ضحية الاشتغال بذلك النسيب اليائس الحزين ، وقطع الأمل به عن كل شىء فى الحياة .

أما وصف النساء فى القرآن فلا يقصد لذاته ، بل يقصد به ذكر نساء الجنة ووصف محاسنهن من الحور العين وغيرهن ،

شحذا لهمم الراغبين فى ثواب الآخرة ، وترغيبا فى العمل النافع فى الآخرة والدنيا ، إذ لاتنال تلك الحور فى الجنة إلا به ، فهو من هذه الناحية على خلاف النسيب فى الشعر ، لأن النسيب فى القرآن جِد وأمل ، والنسيب فى الشعر لهو وعبث ، أو قنوط ويأس . وشتان بهذا بين النسيبين : نسيب يملأ الدنيا عملا وأملا ، ويجعلها تفيض إشراقا ونورا ونسيب يملأ الدنيا بطالة او يأسا ، ويجعلها ،ظلمة حالكة .

وكان لذلك المقصد السامى أثره فى وصف القرآن للنساء ، فلم ينزل فى ذكر النساء ووصف محاسنهن إلى حد إثارة الشهوة البهيمية ، بل بعد فى وصفه لمحاسنهن عن المواطن التى تثير تلك الشهوة . ولم يدر إلا حول أمور تبعث الرغبة الشريفة فيهن ، وتجمع بين الجمال الحسى الظاهر للعين ، والجمال الروحى الذى لا يُعنىَ به فى النسيب الشعرى .

ومن تلك الأوصاف ماجاء فى قوله تعالى فى الآيات — ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ — من سورة الرحمان (فيهن قاصراتُ الطرفِ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاءِ ربكما تكذبانِ . كأنهن الياقوتُ والمرجانُ ، فبأى آلاءِ ربكما تكذبانِ) وقوله بعد هذا فى الآيات — ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ (فيهن

خيرات حسان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، حور مقصورات في الخيام، فبأى آلاء ربكما تكذبان، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان، فبأى آلاء ربكما تكذبان) فلم يصفهن فى ذلك إلا بأنهن قاصرات الطرف ، وهن اللاتى يقصرن أبصارهن على أزواجهن ولا يتطلعن إلى غيرهم ، ولا بأنهن لم يطمثهن قبلهم إنس ولا جان ، وهن الابكار كما سيجىء فى بعض الآيات ، وإلا بأنهن خيرات بسكون الياء ، وهن الخيرات بتشديدها أى فاضلات الأخلاق، وإلا بأنهن حسان فى الخلق والصورة ، وفى تأخير جمال الصورة عن جمال الأخلاق تنبيه على فضل الثانى على الأول ، ثم وصفهن بأنهن مقصورات فى الخيام وهن المخدرات فيها ؛ وهو وصف يرجع إلى الصيانة والحفظ أيضا ، وكلها أوصاف شريفة لا تثير شهوة فاجرة ، ولا تحرك نفسا إلى ناحية الإثم .

ومن تلك الأوصاف ما جاء فى قوله تعالى فى الآيتين — ٢٢ ، ٢٣ من سورة الواقعة (وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون)، وقوله بعد هذا فى الآيات — ٣٥-٣٦-٣٧ (إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكاراً ، عرباً أتراباً) فوصفهن بأنهن حور عين ، وهن

اللاتى عظم سواد عيونهن فى سعة أو الحسنات العيون ، ثم وصفهن بأنه أنشأهن إنشاء أى أنه ابتدأ خلقهن إبتداء جديدا من غير ولادة ، فتعود العجوز الشمطاء فى الدنيا بكرا فى الجنة ، ثم وصفهن بأنهن أتراب أى على سن واحدة فى الاستواء والصورة ، وبأنهن عرب جمع عروب وهى المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل له ، وقد ذكر بعض المفسرين فى وصفهن بالأبكار أن أزواجهن كلما أتوهن وجدوهن أبكارا ، وهم يريدون من ذلك الشهوة الحسية ، وإن نفسى لتميل إلى أن ذلك إشارة إلى أن التمتع بهن تمتع روحى لاغير ، فهو تمتع بالقرب والمؤانسة ، لا بالشهوة الحسية التى تقصد فى الدنيا ، ولا شك أن اللذة الروحية لا تذكر بجانبها تلك اللذة الجسدية .

وقد جاء وصف نساء الجنة فى غير الآيات السابقة ، وكلها أوصاف ظاهرة بريئة ، ومن الطوائف الإسلامية من يذهب إلى أن تلك الأوصاف الحسية لا يتعين أن تدل على نعيم حسى فى الجنة ، فيجعلها رمزا إلى ما بها من نعيم روحى ، فمن شاء أخذ بما ذهب إليه الجمهور من وجود نعيم حسى فى الجنة ، ومن شاء أخذ بما ذهبت اليه تلك الطائفة من أنه ليس فى الجنة الا النعيم الروحى .

على أنه جاء مع هذا قليل من الآيات فى وصف نساء الدنيا ،

كما فى قوله تعالى فى الآية - ٥ - من سورة التحريم (عسىَ ربُّه إنْ طلقكنَّ أنْ يبدلهُ أزواجاً خيراً منكن مسلماتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابداتٍ سائحاتٍ ثيباتٍ وأبكارا) والأسلوب واحد فى الموضوعين ، والأوصاف هنا هى الأوصاف هناك ، فى براءتها وطهرها ، وفى أن المراد منها إظهار كمال النفس وشرف الأخلاق ، فإذا ذكرت وصفا حسيا ذكرت مايكون وسيلة لذلك الحسن النفسى المقصود ، لأن الحسن الظاهرى ينمُّ غالبا عن الحسن الباطنى ، ولا يقع تخالف بينهما إلا نادرا .

وكذلك ورد فى القرآن أمر آخر ورد نظيره فى الشعر ، وهو النسيب بغير النساء فورد نظيره فى القرآن على خير ما يورد مثله ، ولمقاصد بعيدة كل البعد عن الأغراض التى ذكر من أجلها النسيب بغير النساء فى الشعر ، ومن هذا ماجاء فى الآية — ٦ — من سورة الإنسان (ويطوفُ عليهمْ ولدانٌ مخلدونَ إذا رأيتهم حسبتهمْ لؤلؤاً منثوراً) فهؤلاء الولدان المخلدون هم خدم أهل الجنة ، وماذكر من وصفهم لا يراد منه إلا زيادة تشريف أهل الجنة بذكر تلك الأوصاف العظيمة لخدمهم ، والولدان جمع وليد وهو الصبى أو الخادم ، والمخلدون الذين يبقون أبدا على شكل الولدان لا يتحولون عنه ، وقد شبهوا فى صفاء

ألوانهم وانبثاثهم فى مجالسهم ومنازلهم باللؤلؤ المنثور ، وهذه أوصاف طاهرة بريئة لا يقصد منها إلا زيادة تشريف أهل الجنة كما سبق ، ترغيبا فى العمل الصالح فى الدنيا ، ليكون هذا جزاؤه فى الآخرة ، ويجب أن يكون على ذكر منا ما ذهبت إليه الطائفة الإسلامية السابقة من أن هذا وغيره إنما هو رمز إلى النعيم الروحى فى الجنة .

فأين هذا مما ذكر له النسيب بالمذكر فى الشعر ؟ فإنه ذكر فيه على وجه أشد إثما من النسيب فيه بالمؤنث ، مما لا يصح ذكر أمثلة منه هنا ، لأن هذه دراسات قرآنية شريفة ، فلا يصح أن تدنس بذكر تلك المآثم ، ولا أن تحيد عن غايتها الطاهرة المقدسة ؟

القرآن ومدائح الشعراء

كان الشعراء لأول عهد العرب بالشعر من أصحاب الشرف فيهم، كالمهلهل بن ربيعة الذى كان أول من هلهل الشعر ورققه وجعله قصيدا، فإنه أخو كليب بن ربيعة الذى كان ملكا على قبائل ربيعة، وكامرىء القيس بن حُجُر، فإن أباه كان ملكا على كندة وبنى أسد، وكانت أمه أخت كليب والمهلهل، وقد تناولوا المدح فيما تناولوه من أغراض الشعر، فكان مدحهم شكراً على صنيع أو نحو ذلك مما يلائم منزلتهم، فلما تناول الشعر السوقة من العرب جعلوه وسيلة لكسب المال، فكانوا لا يمدحون إلا من يجدون المال عنده من الملوك والأشراف. فجاء مدحا كاذبا يرفع من قدر من يمدحونهم على ما يعطونهم من أموالهم، لا على حسن سيرتهم وأفعالهم، والمدح فى الحالين لا يقصد إلى مصلحة عامة تنفع الناس فى دنياهم أو أخراهم، وإنما هو شكر على صنيع خاص مع الشاعر فى الحال الأول، أو على أجر من المال للشاعر فى الحال الثانى.

وقد جاء المدح فى القرآن الكريم على خلاف ذلك، فلم يكن شكراً على صنيع خاص، ولم يكن لغرض مادىّ يراد الحصول عليه بمدح كاذب، وإنما كان على صفات كريمة للممدوح، وعلى أفعال نافعة فى

الدنيا والآخرة ، ولأناس لايكون مدحهم إلا صادقا ، من الأنبياء والحكماء والصدّيقين وأشباههم ، ليكون قدوة صالحة لكل من يريد المدح من الشعراء وغيرهم ، وليؤدى رسالته فى الأمة ، فيرفع من شأن من يرفع بأفعاله من شأنها ، ومن يكون قدوة صالحة فيها بأخلاقه الفاضلة .

وفى القرآن كثير من هذا المدح الصادق . ومنه قوله تعالى فى الآيات — ٤١ : ٥٨ — من سورة مريم (واذكرْ فى الكتابِ إبراهيمَ إنهُ كانَ صِدِّيقاً نبيًّا ، إذْ قالَ لأبيهِ يا أبتِ لمَ تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يبصرُ ولا يغني عنكَ شيئاً ، يا أبتِ إنّي قدْ جاءنِي مِنَ العلمِ ما لمْ يأتكَ فاتبعنِي أهدكَ صراطاً سويًّا ، يا أبتِ لا تعبدِ الشيطانَ إنّ الشيطانَ كانَ للرحمانِ عصيًّا ، يا أبتِ إنّي أخافُ أنْ يمسَّكَ عذابٌ مِنَ الرحمانِ فتكونَ للشيطانِ وليًّا ، قالَ أراغبٌ أنتَ عَنْ آلهتِي يا إبراهيمُ لَئِنْ لمْ تنتهِ لأرجمنَّكَ واهجرْنِي مليًّا ، قالَ سلامٌ عليكَ سأستغفرُ لكَ ربِّي إنه كانَ بِي حفيًّا ، وأعتزلكمْ وما تدعونَ مِنْ دونِ اللهِ وأدعُو ربِّي عسَى ألاَّ أكونَ بدعاءِ ربِّي شقيًّا ، فلمَّا اعتزلهمْ وما يعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ وهبنا لهُ إسحاقَ ويعقوبَ وكُلًّا جعلنا نبيًّا ، ووهبنا لهمْ مِنْ رحمتنا وجعلنا لهمْ لسانَ صدقٍ عليًّا ،

واذكرْ فى الكتابِ موسَى إنهُ كانَ مخلصاً وكانَ رسولاً نبيا ، وناديناه منْ جانبِ الطُّورِ الأيمنِ وقرّبناهُ نجيًّا ، ووهبنا لهُ منْ رحمتنا أخاهُ هارونَ نبيّاً . واذكرْ فى الكتابِ إسماعيلَ إنهُ كانَ صادقَ الوعدِ وكانَ رسولاً نبيّاً ، وكانَ يأمرُ أهلهُ بالصلاةِ والزكاةِ وكانَ عندَ ربِّه مرضياً ، واذكرْ فى الكتابِ إدريسَ إنهُ كانَ صديقاً نبياً ، ورفعناهُ مكاناً عليًّا ، أولئكَ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهمْ منَ النبيّينَ منْ ذرّيةِ آدمَ وممنْ حملنا معَ نوحٍ ومن ذريةِ إبراهيمَ وإسرائيلَ وممنْ هدينا واجتبينا إذا تتلَى عليهمْ آياتُ الرحمانِ خرُّوا سجّداً وبكيّاً) .

ومن هذا قوله تعالى فى مدح أيّوب فى الآيات — ١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ — من سورة ص (واذكرْ عبدنا أيوبَ إذْ نادَى ربَّهُ أنى مسّنىَ الشيطانُ بنصبٍ وعذاب ، اركضْ برجلكَ هذا مغتسلٌ باردٌ وشرابٌ ، ووهبنا لهُ أهلهُ ومثلهمْ معهمْ رحمةً منّا وذكرَى لأولِى الألبابِ ، وخذْ بيدكَ ضغثاً فاضربْ بهِ ولا تحنثْ إنّا وجدناهُ صابراً نعمَ العبدُ إنّهُ أوّابٌ)

ومن هذا قوله فى مدح محمد وأصحابه فى آخر سورة الفتح (محمدٌ رسولُ اللهِ والذينَ معهُ أشدّاءُ على الكفارِ رحماء بينهمْ تراهمْ ركّعاً سجّداً يبتغونَ فضلاً منَ اللهِ ورضواناً سيماهمْ فى وجوههم منْ أثرِ

السجود ذلكَ مثلهمْ فى التوراة ومثلهمْ فى الإنجيلِ كزرعٍ أخرَجَ شطأهُ فآزرهُ فاستغلظَ فاستوَى على سوقهِ يعجبُ الزراعَ ليغيظ بهمُ الكفارَ وعد اللهُ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً).

وهذا كله مدح صادق كريم، يسير على نمط صالح عظيم، ولا يكون إلا لمن كان لهم أثر نافع فى الدنيا والدين؟

القرآن وهجاء الشعر

الهجاء هو تعداد مثالب المرء وقبيله ونفي المكارم والمحاسن عنه، وبعكسه المدح . فهو الثناء على ذى شأن بما يستحق الثناء عليه من الأخلاق النفسية، كرجاحة العقل والجود والعدل والعفة والشجاعة، أو المحاسن الجسمية، كالجمال وبسطة الجسم، وهما غرضان من أغراض الشعر العربي .

وكان العرب فى أوائل عهدهم بالشعر لا يقولون المدح والهجاء إلا فى الأغراض الشريفة والمقاصد النبيلة، فلا يمدحون عظيما طمعا فى نواله، ولا يهجون شريفا تشفيا وانتقاما منه لمنعه نواله عنهم، وإنما كانوا يمدحون شكرا على صنيع ونحوه كما سبق فى موضوع المدح ، ويهجون من أجل هذا لا غيره ، وكانوا إذا هجوا لا يفحشون فى هجائهم ، وإنما يكتفون بالتهكم بالمهجو والتشكك فى حقيقة حاله ، كما قال زهير بن أبى سُلمى فى هجاء آل حصن من بنى كلب :

وما أدرى ولست إخال أدرى ... أقوم آل حصن أم نساءُ

وكان قد نزل عليهم رجل من قومه فأكرموه، ولكنه كان مولعا بالقمار، فنهوه عنه، فأبى إلا المقامرة، فقمر مرتين فردوا عليه، وقمر الثالثة

فتركوه، فرحل عنهم وشكاهم إلى زهير، فهجاهم بقصيدة منها البيت السابق، ثم ندم على هجائهم لأنه كان ظالما لهم به، حتى إنه كان يقول: ماخرجت فى ليـــلة ظلما. إلا خشيت الله أن يصيبنى بعقوبة لهجائى قوما ظلمتهم.

ثم نشأت بعد ذلك طائفة من الشعراء امتهنت الشعر وتكسبت به، فمدحت به وهجت من أجل المال، وانحطت نفوسها من أجل استعماله فى هذا الغرض الدنىء، فلم يتورعوا فى هجائهم عن القول البذىء، واللفظ الفاحش، حتى قال بعضهم فى هجائه لقوم يخلوا عليه بمالهم، وهو من أحسن الهجاء عندهم:

قوم إذا استنبح الأضـياف كلبهم
قالوا لأمهم بولى على النار
فضيقت فرجها بخـلا ببولتها
فلا تبـــول لهم إلا بمقدار

ولكنهم كانوا فى الحالين يستعملون الهجاء فى أغراضهم الخاصة كما سبق فى المدح، وقد وقع المدح فى القرآن الكريم لغير هذه الأغراض الخاصة كما سبق، وكذلك وقع ذمه من ذمهم لغيرها. لأن الإسلام جاء بدعوة كريمة تنهض بالعرب خاصة وبالناس عامة، فلم يكن المدح فيه إلا من

أجل هذه الدعوة الكريمة ، ولم يكن الذم فيه إلا من أجلها أيضاً ،
ولم يكن هذا غرضا من أغراضه فى هذه الدعوة الكريمة ، ولكنه جاء
ردا على طعنهم فيها كما جاء إذنه بالقتال ردا على قتالهم .

فكان ذم القرآن لمن ذمهم كريما فى المقصد الذى يراد منه ،
كريما فى بعده عن القول البذى . واللفظ الفاحش ، كريماً فى بعده عن
العيب بما لا يصح العيب به من نقص جسمى ونحوه ، كريما فى بعده
عن قصد شخص معين بالذم ، لأنه ينأى عن "الغلو" فى الإيذاء .
فيؤثر فى ذلك أن يجعله ذما عاما لكل خصوم الدعوة ، ولو كان
المقصود به شخصا معينا منهم ، حتى لا يكون فى هذا إيذاء شخصى له
أولمن ينتسب إليه فى كتاب يبقى على الدهر ، وقد يكون من ذريته
مسلمون يؤذيهم هذا الذم ، ويبقى سبة فيهم إلى آخر الدهر .

وما كان القرآن الكريم أن ينزل إلى ذلك الدرك الذى نزل
إليه الشعر فى الهجاء ، وهو يدعو إلى مكارم الأخلاق ، ولا يريد
إلا هداية الناس إلى ما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، ولا يبغى
من ذلك أجراً دنيويا ، ولا يطمع فى غرض مما يطمع فيه ذلك
الشعر ، فيستبيح فى سبيله ما استباحه من هتك الأعراض ، وارتكاب
الكذب فى سبيل الوصول إلى غرضه الدنىء .

وهذا مثل من ذم القرآن أتى ردا على طعن المشركين فى النبى صلى الله عليه وسلم بأنه مجنون، فقال فى نفى هذا عنه من أول سورة القلم (ن، والقلمِ وما يسطرونَ، ما أنتَ بنعمةِ ربك بمجنونٍ، وإن لكَ لأجراً غيرَ ممنونٍ، وإنك لعلى خلقٍ عظيم) فجعل من أكبر الدلالة على أنه ليس بمجنون ما هو عليه من الخلق العظيم. ثم قال فى ذمهم رداً على ذلك بعد أن أوعدهم بما أوعدهم به (فلا تطعْ المكذبينَ، ودُّوا لو تدهنُ فيدهنونَ، ولا تطع كلَّ حلافٍ مهينٍ، هماز مشاءٍ بنميم مناعٍ للخيرِ معتدٍ أثيم، عتل بعدَ ذلكَ زنيم، أنْ كانَ ذا مالٍ وبنينَ، إذا تتلَى عليهِ آياتنا قالَ أساطيرُ الأولينَ، سنسمهُ على الخرطوم) وقد قيل إن هذه الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة، وكان كثير المال، وله عشرة من البنين، وكان يقول لهم: من أسلم منكم منعته رفدى، وكان دعيا فى قريش مطعونا فى نسبه، لأن أباه ادعاه بعد ثمان عشرة سنة من مولده، فإذا سلم أن هذه الآيات نزلت فيه فإنها جاءت خالية من كل ما يشير من قريب أو بعيد إلى أنها نزلت فيه، بل مهدت بذلك بنهى النبى عن إطاعة المكذبين عموما فيما يدونه من أن يدهن معهم ليدهنوا معه، ثم نهاه عن إطاعة كل حلاف مهين على العموم أيضا، حتى لا يفهم القارى.

أن هذا لا يراد به شخص بعينه ، وإنما هى صفة كل مشرك على الإجمال
وقد يقال إن قوله (زنيم) فيه إشارة قريبة إلى الوليد بن المغيرة لأن
الزنيم هو الدعى فى النسب والجواب من القرآن أكبر من أن يذم
شخصا بذلك ، والزنيم لا يلزم أن يكون معناه الدعى فى النسب لأنه
يطلق أيضا على اللئيم وعلى غيره وقد وصفه قبله بأوصاف تدخل فى
سوء الخلق لأن الحلاف الكثير الحلف بالباطل والمهين الحقير
النفس وإن كان غنيا ، والهماز العياب والمغتاب للناس ، والمشاء بالنميم
الساعى بالفساد بينهم ، والمناع للخير البخيل بالمال عن الحقوق المطلوبة
فيه ، والمعتدى الظلام للناس والأثيم العاصى ربه والعتل الجافى الغليظ
القلب ، فهذه الأوصاف كلها تدخل فى سوء الخلق ؛ فليكن الزنيم
بمعنى اللئيم ليدخل فى سوء الخلق ايضاً ، ولا ينفرد وحده بالذم من
غير هذه الناحية .

وقد يقال إن هذا يرد عليه قوله تعالى فى سورة المسد (تبت يدا
أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب
وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد) لأنه صرح فيه
بمن ورد فيه هذا الذم ، وهو أبو لهب عم النبى صلى الله عليه وسلم فقد
ذكر المفسرون أنه لما أمره بإنذار عشيرته الأقربين رقى الصفا وقال

— ياصباحاه — فاجتمع إليه الناس من كل أوب ، فقال « يابنى عبد المطلب ، يابنى فهر ، إن أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقىّ؟ » قالوا : نعم. فقال « فإنى نذير لكم بين يدى الساعة » فقال له عمه أبو لهب : تبا لك ! ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت فيه الآيات السابقة .

والجواب عن هذا من وجوه :

أولها أن أبا لهب لم يكن بأشد إيذاء للنبى من غيره من رؤساء المشركين فى مكة ، بل كان فيهم من هو أشد إيذاء له وللمسلمين منه ، ومع هذا لم يرد تصريح باسم واحد منهم فى معرض ذم فى القرآن الكريم ، وكذلك كان من أمر عبد الله بن أبىّ رئيس المنافقين فى المدينة ما كان من كيد المسلمين ، وقد ظهر أمر النبى والتف المسلمون فى المدينة حوله ، وظاهروه على أعدائه حتى ظهر عليهم ، ولم يرد تصريح باسمه فيما ورد من ذم المنافقين فى القرآن أيضا ، ولا شك أن عمه أولى بالستر عليه فى ذلك من غيره .

وثانيها أن أبا لهب اسمه عبد العزّى ، وهذه كنية عن إشراق وجهه ، فهى كنية مدح لا ذم ، وليس من المناسب فى معرض ذم شخص أن يذكر فيه بكنية مدح له .

وثالثها أن كنية أبي لهب في الآيات السابقة غير كنية أبي لهب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن كنية عمه بمعنى إشراق الوجه كما سبق ، أما كنية أبي لهب في الآية فبمعنى صاحب النار ، ولهذا قال بعد (سيصلى نارا ذات لهب) إيذانا بأنها المرادة في تكنيته بأبي لهب ، كما يقال أبو الشر للشرير ، وأبو الخير للخير بتشديد الياء في الثاني وتخفيفها في الأول ، وحينئذ يكون المراد بأبي لهب في السورة صاحب النار مطلقا من المشركين ، لا أبو لهب عم النبي صلى الله عليه وسلم .

وبعد فقد نقل عن عمرو بن عبيد من أئمة المعتزلة أنه كان ينكر أن تكون سورة المسد من القرآن ، وفي ظني أن هذا من كذب بعض الفرق الإسلامية على بعض ، وإنما أوردت هذا هنا مع ترجيحي لكذبه لأن تخصيص هذه السورة بذلك لا سبب له عندي إلا سوء فهم المفسرين لها ، بحملهم لها على غير أسلوب القرآن من إيثار الستر على من ذمهم بترك التصريح بأسمائهم ، تكرما منه وبعدا عن التشفي ، ولأنهم قد يهتدون إلى الإسلام بعد عداوتهم له ، فلا يكون في القرآن ما يؤذيهم بعد إسلامهم ، أو يؤذي من يسلم من ذريتهم ؟

جواز ترجمة القرآن

١ — هل ترجمت سور قرآنية إلى الحبشية فى عهد النبوة :

رأيى فى الخلاف الذى يقوم الفينة بعد الفينة فى جواز ترجمة القرآن وعدم جوازها أنه خلاف لفظى لا يصح الاشتغال به ، لأن ترجمة القرآن ترجمة حرفية غير ممكنة قطعا ، لأن كل لغة لها أسلوبها وخصائصها ، فلا تتحمل كل لغة من هذا ماتتحمله الأخرى ، أما ترجمته المعنوية فهى ممكنة وجائزة ، ولا يصح الخلاف فى جوازها ، لأنه لايخالف أحد فى جواز تفسير القرآن بغير العربية ، والترجمة المعنوية ليست إلا ترجمة تفسير له ، وهذا إلى أن الأصل الجواز فى هذه المسألة ، فلا يصار فيها إلى المنع إلا بدليل ، وهى أيضا مسألة اجتهادية لم يَرِد فيها نص قاطع ، فلكل مجتهد أن يذهب فيها إلى ما يراه بالدليل ، ولا يصح أن يكون الخلاف فيها مثار الفتنة ، ولا أن يكون مجالا للطعن فى دين المخالف ، بل يجب أن يكون لنا فى سلفنا الصالح من المجتهدين قدوة حسنة ، فيكون خلافنا فيما بيننا كما كان الخلاف بين أئمتنا السابقين من أبى حنيفة إلى مالك إلى الشافعى إلى ابن حنبل إلى غيرهم من الأئمة المجتهدين ، وإلا فويل للدين ممن يسلك سبيل الغلو فيه ، وويل له ممن يجعل الخلاف فى مسائله الاجتهادية مثارا للفتنة ، وإنى لا أقول هذا إرضاء لفريق من

الناس ، فما مررت يوما فى حياتى على هذا الخلق الردىء ، وإنما هو سبيلى فى كل ما أجتهد فيه بالدليل ، فلا يهمنى فيه أن أرضى هذا أو أغضب ذاك ، بل لا يهمنى أن أقوم وحدى فى صف ، ويقوم إخوانى من جمهور العلماء فى صف آخر ، كما حدث من سنين مضت حين قامت فتنة شديدة حول الوقف الأهلى ، ووقف علماؤنا فى صف واحد وراء إحدى الجهات التى كان لها شأنها فى مصر ، يفتون بأن الوقف الأهلى من الدين ، ولم أشاركهم فى هذا الموقف الذى يسيرون فيه وراء تلك الجهة ، ولم أعبأ بما يصيبنى من عنت بسبب مخالفتى لهم (١)

ولأعد بعد هذا إلى سؤالى : هل ترجمت سور قرآنية إلى الحبشية فى عهد النبوة ؟ .

وجوابى عليه أنه ترجمت سور من القرآن إلى هذه اللغة فى هذا العهد ، وأن هذا كان فى بلاد الحبشة ، وأن الذى قام به بعض الصحابة الذين هاجروا الى الحبشة حينما اشتد إيذاء قريش عليهم ، وأنه قد نزل فى شأن هذه الترجمة قرآن سأذكره بعد .

وكانت هجرة الصحابة إلى الحبشة قبل هجرتهم إلى المدينة ، وقد هاجروا اليها مرتين ، فخرجوا أولا اليها فى عشرة رجال وخمس نسوة ،

---

(١) نشر هذا فى جريدة البلاغ : ٢٤/١/١٣٥٥هـ ١٦/٤/١٩٣٦م

فيهم عثمان بن عفان وزوجه رقية ، وأبو سلمة وزوجه أم سلمة ، وعبد الرحمان ابن عوف ، وعثمان بن مظعون ، وغيرهم من مسلمى قريش ، فأقاموا فيها ثلاثة أشهر ، ولم تطب لهم الإقامة فيها لقلتهم وغربتهم ، فلما رجعوا إلى مكة اشتدت نقمة قريش عليهم وزادت فى أذاهم ، فلم يجدوا إلا أن يهاجروا ثانيا إلى الحبشة ، وكانوا فى هذه المرة بضعاً وثمانين رجلا وثمانى عشرة امرأة ، فيهم جعفر بن أبى طالب وزوجه أسماء ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهم ممن آثروا الغربة على أذى قريش بمكة .

فاشتد على قريش هجرة هذا العدد من أبنائها ، وأرسلت عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدايا إلى النجاشى ليردهم اليها ، فلما وصلا إليه قالا له : إن نفراً من بنى عمنا نزلوا بأرضك ، فرغبوا عنا وعن آلهتنا ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك أشراف قريش لتردهم اليهم .

فقال النجاشى : وأين هم ؟

قالوا : بأرضك .

فأرسل فى طلبهم فأتوا اليه ، فقال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ؟ ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من الملل .

فقالوا له : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ويأكل القوى الضعيف ، فكنا على

ذلك حتى بعث الله لنا رسولا كما بعث الرسل إلى من قبلنا ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده . الخ الخ .

فقال النجاشي لجعفر بن أبي طالب ، وكان هو الذى يتكلم عنهم : هل عندك مما جاء به شيء ؟

فقال جعفر : نعم .

فقال له النجاشي : فاقرأ .

فقرأ جعفر عليه صدرا من سورة مريم (كهيعص ، ذِكْرُ رحمةِ ربِّكَ عبدهُ زكريّا) الآيات الأولى من هذه السورة فى قصة زكريا ومريم

فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته ، وبكت أساقفته معه ، لأنه وجد دينهم يعظم من شأن زكريا وابنه يحيى ، ويعظم من شأن مريم وابنها عيسى ، ولم يجد فرقا كبيرا بين هذا الدين وبين النصرانية ، بل وجدهما يشتركان فى تحريم عبادة الأصنام التى تؤذى قريش من أجلها أهل هذا الدين الجديد ، ولم تكن السياسة الآثمة قد دخلت بين الإسلام والمسيحية لتثير من العداء ما تثير بينهما .

ثم قرأ عليه جعفر سورتى العنكبوت والروم ، وفى السورة الأولى ذكر فتنة قريش لهم فى دينهم ، وفى السورة الثانية مانزل فى شأن نصارى الروم من حزن المسلمين لانتصار الفُرْس المجوس عليهم ، وفرح قريش لهذا الانتصار ، ووعد القرآن بانتصار الروم على الفرس فى بضع

سنين ، وفى هذا ما يدل على التقارب بين الاسلام والنصرانية قبل أن تلعب السياسة الآثمة لعبتها السابقة بينهما .

ففاضت عينا النجاشى بالدمع حين قرأ جعفر ذلك عليه أيضا ، وفاضت أعين أساقفته معه ، وقالوا لجعفر : يا جعفر ، زدنا من هذا الحديث الطيب . فقرأ عليهم سورة الكهف ، وهى فى ذكر أصحاب الكهف الذين أوذوا فى نصرانيتهم عَلَى المختار فى أمرهم .

فقال النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ولا بُدَّ بعد هذا من سؤال يوجه فى قراءة جعفر لهذه السور ، فهل قرأها جعفر بالعربية التى نزل القرآن بها ثم ترجمت للنجاشى وأساقفته ممن يعرف العربية والحبشية من أهل الحبشة ، أو قرأها جعفر مترجمة إلى الحبشية ، لأنه أقام فى الحبشة مدة تمكنه من هذه الترجمة ؟ وعلى كل من الاحتمالين تكون هذه السور قد ترجمت إلى الحبشية بحضر من الصحابة المهاجرين ، وبإقرار منهم لترجمتها اليها .

ويظهر أن بعض علماء السيرة النبوية أشكل عليه قراءة هذه السور للنجاشى وبكاؤه لسماعها وهو لا يعرف العربيـة ، ولم يتوجه عقله إلى الاحتمال القريب وهو ترجمتها له إلى الحبشية ، فاخترع قصة غريبة لذلك النجاشى تثبت أنه كان يعرف العربية ، وأن هذه السور قرئت عليه بها فبكى لقراءتها عليه .

وتتلخص هذه القصة فى أن والد هذا النجاشى كان ملكا على الحبشة فقتله أهلها ، وولوا أخاه مكانه عليهم ، فنشأ ابن أخيه المقتول فى حجره حازما لبيبا ، وكان له اثنا عشر ولدا لا يصلحون للملك ، فلما رأى أهل الحبشة نجابة ابن أخيه خافوا أن يتولى عليهم فيقتلهم بأبيه ، فمشوا إلى عمه فى قتله فأبى وأخرجه وباعه ، فقيل إن الذى اشتراه رجل من العرب ، فذهب به إلى بلاده فمكث عنده مدة تعلم فيها العربية ، ثم مرج أمر الحبشة وضاق عليهم ما هم فيه ، ولم يجدوا لهم مخرجاً إلا أن يبحثوا عن ابن ملكهم المقتول ليولوه عليهم ، لأنه كان حازما لبيبا كما سبق ، فخرجوا فى طلبه وأتوا به من عند سيده العربى فولوه عليهم .

وقد قال السهيلى : إن بكاءه عند ما تليت عليه سورة مريم يدل على طول مكثه ببلاد العرب حتى تعلم من لسانهم ما فهم به تلك السورة .

وإنى أقول للسهيلى : إن هذه القصة أشبه بأن تكون أسطورة ، وهى على هذا إذا كفت فى أمر بكاء النجاشى فإنها لا تكفى فى بكاء أساقفته ومن حضر من قومه ، ولم يكن لهم مثل هذه القصة ليتعلموا بها لسان العرب ، وحينئذ تكون ترجمة هذه السورة إلى الحبشية هى الحل المعقول لذلك الإشكال .

هذا وقد نزل قرآن فى بكاء النجاشى وأساقفته عند سماعهم لهذه السور ، وهو قوله تعالى فى الآيات — ٨٢ : ٨٣ : ٨٤ : ٨٥ — من

سورة المائدة (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين. فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين)

وهنا شبهة لخصوم الإسلام أن التاريخ لا يثبت إسلام النجاشى وقسيسيه حتى يرد مثل هذا فيهم، وجمهورنا لا يهمه مثل هذه الشبهة بعد ثبوت تنزيل القرآن بالإعجاز، وإنى أرى فى الجواب عن هذه الشبهة أن النجاشى وقسيسيه لم يكونوا مكلفين بالإسلام فى ذلك الوقت وإنما كلفوا به بعد توجيه الدعوة إليهم فى السنة السابعة من الهجرة، فلا غرابة فى أن يكتفى منهم بهذا القدر من الإيمان مع بقائهم على نصرانيتهم، ولا فى أن يعدهم عليه بذلك الثواب فى الآخرة، لأنهم قدموا للإسلام خدمه عظيمة بإيوائهم لمن هاجروا من المسلمين إلى بلادهم، ولأنهم لم يرضوا بردهم إلى قريش ليفتنوهم عن دينهم،

٢ – وسائل ترجمة القرآن ومقدماتها :

كان لصاحب الفضيلة الشيخ المراغي شيخ الجامع الأزهر رأيه فى جواز ترجمة القرآن، ولم يثنه عنه تلك الخصومات العنيفة التي لاقاها فى سبيله، وقد خطا بعد هذا خطوة عظيمة فى تنفيذ رأيه، فألف لجنة تقوم بهذه الترجمة، وهذا عمل عظيم يجب أن تتخذ له وسائله ومقدماته قبل الشروع فيه، لأنه لا يصح أن يكون مثل ما تقوم به مجلة نور الإسلام – سميت بعد هذا مجلة الأزهر – من ترجمة تفسير البيضاوى إلى اللغة الانجليزية، وإنما يجب أن يكون ترجمة لها مثل جمال أسلوب القرآن بقدر الإمكان، ومثل هذا لا تفي به ترجمة مثل عبارات البيضاوى وغيره من المفسرين، وإنما تفي به ترجمة تشبه ما يسمى فى اللغة العربية بحل النظم، إذ تحل الآيات بفقرات نثرية قريبة من أسلوب الآيات التي أتى بها حلها.

وإنى أرى أن هذا لا يتم قبل أن ندرس أولا مسألة لها قيمتها فى علوم التفسير، وهى مسألة لم تعط ما تستحقه من العناية اللائقة بها، وتلك هى مسألة المناسبة بين آيات كل سورة من سور القرآن، حتى تصير كل سورة وحدة متماسكة الأجزاء، ولها مقصد خاص لا تنحرف عنه هنا أو هناك، حتى تأتى ترجمتها وحدة متماسكة الأجزاء أيضا،

وهذا هو علم المناسبة بين الآيات الذى قال فيه السيوطى فى كتابه — الإتقان — : إنه علم شريف قلّ اعتناء المفسرين به لدقته. وقال فيه ابن العربى فى كتابه — سراج المريدين — ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة مُتَّسِقة المعانى، منتظمة المبانى، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد، عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حَمَلة، ورأينا الخلق فيه بأوصاف البطالة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه.

ومن العلماء من ينكر هذا العلم ويقول فى إنكاره له: إنه يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد يرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث، فضلا عن أحسنه. فإن القرآن نزل فى بضع وعشرين سنة فى أحكام مختلفة، شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض.

وقد قال الشيخ ولىّ الدين الملوى فى ردّ ذلك: قد وهم من قال لا يطلب للآى الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المفرّقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا، فالمصحف على وفق ما فى اللوح المحفوظ مرتّبة سوره

كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملة على بيت العزّة ، ومعنى هذا أنه لم يرتّب كما أُنزل مفرّقا ، حتى يصح أن يعتمد على ذلك فى إنكار تطلّب المناسبة بين الآية والآية .

وقد وضع بعض المتأخرين قاعدة عظيمة فى علم المناسبة بين الآيات فقال : إن الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبة الآيات فى جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذى سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدّمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع الى الأحكام واللوازم التابعة له التى تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصّلا بين كل آية وآية فى كل سورة .

ويجب أن ينظر بعد هذا فى شأن الخصائص التى توجد فى اللغة العربية ولا تتحملها اللغة التى يترجم القرآن إليها ، مثل المعانى الثانوية التى تبحث عنها علوم البلاغة ، ولا يمكن تأديتها كلها فى غير اللغة العربية ، فلا بُدّ من الإشارة إليها فى الترجمة ، ومن المستحسن ألا يشارَ إليها فى صلبها ، بل يجب أن يشار إليها فى تعليقات على هوامشها ،

ليعلم من يترجم القرآن إلى لغتهم أن ترجمته لاتحتوى على كل الوجوه التى صار بها القرآن معجزة مثل غيره من المعجزات .

ويجب بعد هذا أن ننظر نظرة جديدة شاملة فى تفسير القرآن الكريم ، لنختار له تفسيراً يقتصر على أحسن المحامل ، ويضم حلاً جديداً مقبولا فى ذوق عصرنا الذى تجددّ فيه كل شىء لكل ما أثير من اعتراض على بعض مسائل القرآن ، كالحل الذى ذكرته سابقاً فى بنوة مريم أم عيسى لعمران وفى أخوتها لهارون ، فإن المفسرين فى ذلك آراء ينبو عنها ذوق عصرنا ، وقد اهتديت فيهما إلى رأى جديد يستسيغه ذوق أهل هذا العصر ، من غير أهل الجمود طبعاً ، ويطمئن إليه ذوق من نترجم القرآن إلى لغاتهم ، وقد أردت نشره فى مجلة نور الإسلام — مجلة الأزهر — فأبَوْا نشره فيها لغلبة الجمود عليهم ، فلم أجد إلا أن أذهب به إلى السيد محمد رشيد رضا لينشره فى مجلة المنار ، فارتاح إليه كل الارتياح ، ونشره فى هذه المجلة ، واعتمد عليه فيما دار من جدال بينه وبين بعض مسيحى الشام فى هذه المسألة بعد ظهور كتابه — الوحى المحمدى — فلا بُدّ قبل ترجمة القرآن من اعتماد مثل هذه الآراء فى تفسيره ، لتقدّم على غيرها فى ترجمته ، ولتؤدّى الغرض المقصود منها من بيان صدق ما يدعو القرآن إليه ، ودفع ما عمد

إليه بعض من ترجمه من أعداء الإسلام من تشويه مقاصده، وتحريف بعض آياته عن معانيها الصحيحة .

فالشروع فى ترجمة القرآن قبل تذليل هذا كله لا يأتى بالترجمة التى تليق به وتؤدى رسالته بين من يترجم إلى لغاتهم ، بل ربما تؤدى إلى عكس المقصود منها ، وبودى لو أشارك فى تذليل هذه المقدمات والوسائل ، ولكن المتبع الآن فى مثل هذه الأعمال العظيمة أن يختار لها من يهمهم أمر الأجر الذى يحصلون عليه من القيام بها ، قبل أن يهمهم العمل على تحقيقها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم (١)

٣) مقدمة مذللة من مقدمات ترجمة القرآن :

قد يكون أصعب ما يعترض ترجمة القرآن إلى لغة أجنبية صعوبة الربط بين آياته على النحو الذى سبق فى المقال السابق ، حتى إن بعض المفسرين ينكر فيما سبق فيه وجود هذا الربط ، مع أنا إذا سلمنا هذا فسح لأعداء الإسلام الآن من أهل أوربا عيبهم على القرآن بعدم الربط بين آياته ، وممن يطعن على القرآن بهذا دوزى الهولندى وكرليل الإنجليزى وغيرهما ، وقد جاء طعنهم بهذا فى مقدمة تفسير

---

(١) كان من أمر اللجنة التى ألفها الشيخ المراغى أن اجتمعت عدة مرات أخذت عليها أجرها . ثم انقطعت عن الاجتماع ولم تعمل شيئا

الأستاذ محمد فريد وجدى ، فذكر أنهم يقولون إن الواجب فى تأليف الكتب أن يكون للكتاب مقدمة ومباحث متسلسلة ذات مقاصد محدودة فى فصول معدودة ، والقرآن ليس على هذا الشكل ، لأنه آيات مجتمعة ذات أغراض متنوعة ومقاصد مختلفة ، فبينما تقرأ آية وعظ إذا أنت بآية جهاد تليها آية فقه تتبعها قصة رسول ، إلى غير هذا مما لا يجرى الأمر فيه على وتيرة واحدة ، ولا يطّرد الكلام فيه اطراداً .

وكان جواب الأستاذ محمد فريد وجدى على هذا الطعن أن هؤلاء العلماء غاب عنهم أن القرآن ليس بكتاب منشىء أو بحث فيلسوف فيجب عليه تعدّيه لقانون الكتابة البشرية ، وإنما هو وحى إلهى نزل بحسب الحوادث على صدر رسول لا أثر له فى تأليفه ، ولا عمل له فى وضعه وتبويبه ، ولو كان هذا الكتاب على مثال الكتب الوضعية فى الترتيب والتبويب لكان كتاباً وضعياً ، ولكان حظه مثل حظ كل كتاب بشرى ، فيطالع مرة أو مرتين ثم تسأم مطالعته ، ولكنه بهذا الوضع الإلهى يخالف تلك الكتب البشرية ، فيطالع مئات المرات وتحلو مطالعته كلما تكررت ، حتى لا يكاد قارئه يسلو قراءته أو يملها . ولو تمهل دوزى وكرليل ومن نحا نحوهما فى الطعن بذلك على القرآن من مناهل العربية العذبة لعرفوا أن القرآن كتاب ليس مثل غيره من

الكذب ، واعرفوا أن فيه كلاماً ليس مثل غيره من الكلام ، لأنه كلام لا يستطيع قارئه أن يزعم أنه لا ترتيب فيه ، بل يرى أن سلطان الترتيب مقصور على الكلام البشرى ، ويتنزه عنه هذا الكلام الإلهى كما يتنزه البحر عن أن يمد بما تمد به الجداول ، فإن كمال البحر فى أن يكون رهوا متلاطم الأمواج متقابل التيارات ، وكذلك هذا الكلام الإلهى كماله فى أن يتنزه عن قبول القيود ، وأن يكون محيط معان عالية يعب عبابها ، وتتراوح أواذيها ، ولا تنتهى إلى غاية ، ولا تقف عند حد .

وهذا الجواب الذى ذكره الأستاذ محمد فريد وجدى على ما فيه من أسلوب خطابى لا يمثل إلا رأى الطائفة السابقة من المفسرين ، وهى التى ترى أنه لا ارتباط بين آى القرآن ، ولكن رأى جمهور المفسرين على خلاف رأى هذه الطائفة ، ولهذا لم يعجبنى منه هذا الجواب على اجتهاده فى تزويقه وتنميقه بأسلوبه الخطابى ، وما هو فى الحقيقة إلا تسليم لطعن الطاعنين بذلك على القرآن من علماء أوربا .

ولهذا رأيت أن أقوم بعمل فى هذه الناحية من علوم التفسير ، يتناولها وحدها ، ولا يضيع فى ثنايا التفسير كما تضيع محاولات بعض المفسرين فيها ، وهى مع هذا لا تأتى على الوجه الأكمل الذى يناسب

عظيم شأنها ، لأنها تقصد كذيل للتفسير ، ولا تقصد على أنها مطلب مقصود لذاته ، وعلى أنها أدق ناحية من نواحي علوم التفسير .

فعمدت إلى تذليل هذه الغاية الصعبة ، و إلى تعبيد هذا الطريق الشاق بكتاب — الأقوال الحسان في حسن نظم القرآن[1] — فعُنيت فيه ببيان ما لكل سورة من سور القرآن من مقصد عام ، و ببيان ما يتفرع على هذا المقصد العام من مقاصد خاصة تدخل فيه ولا تخرج عنه ، وبربط آيات السورة كلها بهذا المقصد العام وفروعه ، بحيث لا تنحرف آية منها عنه هنا أو هناك ، حتى تكون السورة وحدة متناسبة الأجزاء ، مرتبة ترتيباً منطقيا يأتي على طعن أولئك العلماء الأول بيبين من أساسه ، ثم نثرت فيه معاني السورة على ترتيب آياتها في صورة تظهر فيها هذه الوحدة على أكمل وجه وعلى أتم نظام زيادة في الرد على أولئك الطاعنين ، وتثبيتا لهذه الناحية من علوم التفسير ، حتى لا يتردد فيها بعض المفسرين .

ولا شك أن هذا العمل الشاق الذى قمت به فيه تذليل لأكبر

---

(١) كان هذا اسمه في طبعته الأولى ، وقد سميته في الطبعة الثانية — النظم الفني في القرآن — وهي تمتاز على الطبعة الأولى بحسن الترتيب والتهذيب والزيادات الكثيرة .

عقبة تعترض ترجمة القرآن إلى لغة أجنبية ، لأن المترجم يجد به معانى كل سورة منثورة مرتبة ، فيكون من السهل عليه ترجمتها على صورتها وترتيبها ، ولا أدعى أنى بلغت به الغاية ، لأنه على كل حال جهد فرد ، ويكفيني أنى فتحت به الطريق لمن يأتى بعدى ، والكمال لله وحده .

٤) ترجمة القرآن للتبليغ لا غير :

هدأت الفتنة التى قامت بسبب فتوى مشيخة الأزهر بجواز ترجمة معانى القرآن بعد موافقة الحكومة المصرية على هذه الترجمة كما تريدها هذه المشيخة ، وهى ترجمة معانى القرآن مبسوطة فى تفسير موجز لا تعقيد فيه ولا حشو ، ولا أفهم إلا أن يكون هذا بسرد معانى الآيات باللغة التى تترجم إليها ، لا بطريق الجمع بين النص العربى وتفسيره بهذه اللغة ، لأن هذا يقطع الترجمة تقطيعا ، ولا يجعلها ترجمة خالصة مسرودة على وفق أصلها العربى ، ولا يتخللها شىء أجنبى عنها يفصل بين أجزائها .

ولا بُدّ لى بعد بيان المقدمات التى يجب أن تسبق هذه الترجمة من بيان الغاية منها ، حتى لا يشتبه أمرها على الناس ، وحتى تعرف

منزلة هذه الترجمة من أصلها العربي ، فهل تقوم مقامه في كل شيء ، أو يكون المقصود منها مجرد التبليغ فقط ؟ فلا تقصد ليقوم بها الإعجاز كما قام بأصلها العربي ، ولا تقصد لتكون مصدراً لاستنباط الأحكام كما هو شأن ذلك الأصل ، ولا لغير هذا مما يختص بهذا الأصل وحده .

وإني أرى أن نقصر الترجمة على مقاصد ثلاثة :

أولها : الدعوة إلى الإسلام بأقوى ما يدعى به إليه ، وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا يقال إن الدعوة إلى الإسلام يكفي فيها ترجمة أصوله وفروعه إلى اللغات الأخرى ، لأن أهل هذه اللغات لهم رغبتهم في الاطلاع على مصدر هذه الأصول والفروع ، وهو كتاب الله تعالى . فيجب أن نجيبهم إلى رغبتهم ، لنقوم بكل ما يلزم لتبليغ هذه الدعوة لهم .

وثانيها : أن تقوم ترجمتنا للقرآن ونحن أدرى بمعانيه ومراميه مقام تلك الترجمات التي قام بها بعض أعداء الإسلام بقصد تشويه القرآن ، لأنهم آثروا في فهمهم لما ترجموه ما ألصقه بعض جهلة المسلمين بالقرآن ظلما وعدوانا ، وقد أوقعهم فيه سوء قصدهم من ترجماتهم ، لأن سوء القصد ينحرف بصاحبه عن الجادة ، ويسلك به

مسالك ملتوية . وهذا إلى ضعف فهمهم لمقاصد القرآن ، لأنهم على كل حال غرباء عنه وعن لغته .

وثالثها : أن يكون للمسلمين من غير العرب ترجمة لمعانى القرآن كتفاسيرنا العربية له ، لتنفعهم فى التعليم والتعلّم ، وفى استفادة العبر والمواعظ ، والاهتداء بها فيما يفيدهم فى دنياهم وأخراهم ، ويبصّرهم فى أمور دينهم ، ويزيدهم تمسكا به ، ويقوّى اعتقادهم فيه .

فلا يقصد من هذه الترجمة أن تكون معجزة كأصلها العربى ، لأن هذا الأصل قد احتمل من وجوه الإعجاز ما لا تحتمله ترجمة له فى لغة من اللغات التى يترجم إليها ، فإن فى هذا الأصل من وجوه الإيجاز مثلا ما لا يحصى ولا يعدّ ، وكثير منها ينطوى تحته من المعانى الكثيرة ما ينطوى ، وهذا الإيجاز لا يحتمله غير الأصل العربى من ترجماته ، لأنه وجه من وجوه الإعجاز المقصود منه ، ونحن نريدها ترجمة مبسوطة لأجل الغايات التى ذكرت فيما سبق ، ولا نريدها ترجمة معجزة كأصلها العربى .

ولا يقصد منها أيضاً أن يتعبد بقراءتها فى الصلاة وغيرها مما يتعبد بأصلها العربى فيه ، وقد أجاز أصحاب أبى حنيفة التعبد بقراءة الترجمة فى الصلاة ، ولكن مذهبهم فى ذلك يقوم على أساس ضعيف ، لأنهم

لا يخالفون فى أن الصلاة لا تجوز بالتفسير العربى للقرآن ، وقد اتفق العلماء جميعاً على أنها لا تجوز به ، ولا شك أن الترجمة تفسير وليست بقرآن ، وحينئذ يكون أصحاب أبى حنيفة مناقضين لأنفسهم فى تجويزهم للقراءة بالترجمة فى الصلاة ، وقد أراد الشيخ المراغى وهو من الحنفية أن يدفع هذا التناقض عنهم فقال : قد علمنا من النصوص السابقة أن الفقهاء لا يجيزون الصلاة بالتفسير بالإجماع ، وأنهم اختلفوا فى جوازها بالترجمة على النحو السابق ، وبذلك نعلم أنهم يريدون الترجمة الحرفية ، وهى التى يوضع فيها بدل كل لفظ لفظ آخر مرادف له فى اللغة الأخرى بقدر الاستطاعة ، و بقدر ما تحتمله طبيعة تلك اللغة (١) ولا شك فى أن الترجمة الحرفية غير مستطاعة فى كل آيات القرآن ، ولكن بعض الآيات قد يستطاع فيها ذلك ، وعلى هذا لا تجوز الصلاة بأية آية مترجمة ، بل بالآية التى تترجم ترجمة حرفية ، وليس معنى هذا أن الترجمة المعنوية غير جائزة ، كلا بل هى جائزة ، وهى بمنزلة التفسير كما سبق ، ولكنها لا تجوز الصلاة بها ، وإنما تجوز بالترجمة الحرفية ، وهذا هو الذى يقتضيه فقه مذهب الحنفية ، وهو فقه ظاهر الوجه .

وإنى أرى أنه فقه غير ظاهر الوجه ، لأن الترجمة تفسير مطلقاً ،

---

(١) سبق أن هذه الترجمة غير ممكنة

حرفية كانت أو معنوية، وهى ليست بقرآن مطلقاً، حرفية كانت أو معنوية، ومن لا يجيز الصلاة بالتفسير — وهو الواجب فقها — يجب عليه ألاّ يجيزَ الصلاة بالترجمة مطلقاً، لأنه لا فرق فى هذا بين تفسير وتفسير، ومناط الحكم فى منع الصلاه بالترجمة أنها ليست بقرآن، وأن التعبُّد إنما جاء بلفظه العربى.

وكذلك لا يجوز التعبد بتلاوة الترجمة فى غير الصلاة، لأنها كما سبق تفسير من التفاسير، والتفسير لا يتعبد بتلاوته، وإنما يقصد للتعليم والتعلُّم ونحوه مما سبق، وهذه التلاوة للتعبد هى الواردة فى قوله تعالى فى الآية — ٤ من سورة المُزَّمّل (ورتّلِ القرآنَ ترتيلاً) فهى خاصة بالأصل العربى لأنه هو الذى يطلق عليه اسم القرآن، والشيخ المراغىُّ يوافقنى فى هذا حين يقول : إنه لا ينكر أحد ممن يتذوّق طعم العربية مسلماً كان أو نصرانياً أو يهودياً ما لنظم القرآن من الطلاوة واللذة والتأثير فى النفوس، ولذلك نقول إنه يجب على كل مسلم يعرف العربية ويفهمها ألاّ يحيدَ عن قراءة النظم العربى إلى قراءة إحدى التراجم، فإن ذلك عبث واستهزاء. وظاهر هذا أنه يجيز للمسلم الذى لا يعرف العربية أن يتخذ هذه التراجم للتلاوة والترتيل، وإنى أخالفه فى هذا أيضا، لأن الذى يتعبد بتلاوته وترتيله هو النظم العربى،

أما الترجمة فتفسير لا قرآن كما سبق ، ويجب على من يريد أن يتعبد بالتلاوة ممن لا يعرف العربية أن يأخذ نفسه بتعلمها ، ثم يمكنه أن يتعبد بالتلاوة فى اللفظ العربى ، لأنه هو الذى شرعه الله تعالى للتعبد بتلاوته لا غيره

على أنى أرى فى هذا رأياً وسطاً بين الإفراط والتفريط ، وهو أن أمنع التلاوة للترجمة فى الصلاة وغيرها على أنها قرآن يتعبد بتلاوته ، ولا أمنع أن يتلى منها فى الصلاة ما فيه ذكر أو موعظة أو دعاء لا على أنه قرآن ، بل على أنه ذكر أو موعظة أو دعاء لا غير ، لأن الصلاة لا بُدّ فيها من ذلك ، وإنى أرى أن الصلاة تجوز به لغير العربى ، ولا يجب عليه أن يتلو سورة الفاتحة بالعربية كما يراه بعض الفقهاء ، لأن هذا تشدُّد فى الدين لا داعى إليه ، ودعوة الإسلام عامّة للعربى وغير العربى ، وليس فيه نص صريح قاطع يوجب على غير العربى أن يتعلم العربية ، لتكون لغة العبادة فيه لا غيرها من اللغات .

وكذلك لا يجوز استنباط الأحكام من غير الأصل العربى ، وإنى فى هذا أخالف الشيخ المراغى أيضا ، فقد ذكر أولا اعتراض المانعين لاستنباط الأحكام من الترجمات فقال : إنهم يقولون إن ترجمة القرآن ترجمة حرفية غير ميسورة ، فيضطر المترجم إلى نقل المعانى التى يفهمها

أو يفهمها غيره من العلماء ، وهذا لا يسمى قرآنا ، ولا يمكن أن يسمى نصا شرعيا تستخرج منه الأحكام ، والذين يعتمدون على هذه التراجم لا يسلم لهم شيء من أصول الدين ، وهم يقلدون المترجمين في فهم المعنى ، والدين نهى عن التقليد ، وبهذا يحرمون نعمة استعمال العقل والفهم في كتاب الله تعالى ، ونعمة الأجر على الاجتهاد واستعمال العقل والفهم .

ثم أجاب عن هذا الاعتراض فقال : إني أسلم أن التراجم لا يصح أن تسمى قرآنا ، ولكن سلب هذه التسمية لا يستلزم سلب جواز استخراج الأحكام منها . بل يجب أن يصح استخراج الأحكام منها ، لأن الأحكام تستفاد من المعاني التي هي مدلولات الألفاظ العربية ، والمعاني يصح نقلها إلى اللغات الأخرى ، لأن الأحكام إنما تستفاد من الدلالة الأصلية التي لا تختلف فيها اللغات ، كما ذهب إلى هذا صاحب — الموافقات — أما الدلالات التابعة فالراجح أن الأحكام لا تستفاد منها .

وإني أخالف الشيخ المراغي في تجويزه الاجتهاد لمن لا يعرف اللغة العربية ، ويكتفي فيه بهذه التراجم . فإنه لا يصح إذا فتحنا باب الاجتهاد في عصرنا — وإني من القائلين بوجوب فتحه فيه — أن

نهون الأمر فيه إلى ذلك الحد ، فنجوّز الاجتهاد فيه لمن يجهل اللغة الأصلية للتشريع فى الإسلام ، وننقلب بهذا من إفراط بالغ فى شروط الاجتهاد إلى تفريط بالغ فيه ، والواجب الاعتدال فيه بين الإفراط والتفريط .

وليس بصحيح ما ذهب إليه صاحب — الموافقات — من قصر استخراج الأحكام على الدلالات الأصلية ، لأن الدلالات التابعة تقصد لهذه الأحكام أيضاً ، ولا يصح أن تقصد لأنها محاسن فى الكلام لا طائل تحتها ، ومن الأحكام المستنبطة منها وجوب الترتيب بين أعضاء الوضوء عند الشافعى ، لأن الله تعالى حين أمر به فى قوله فى الآية — ٦ — من سورة المائدة (يا أيُّها الذينَ آمنُوا إذا قُمتُمْ إلَى الصَّلاةِ فاغسلُوا وجوهَكمْ وأيديَكمْ إلى المرافقِ وامسحوا برؤوسِكمْ وأرجلَكم إلَى الكعبينِ) أتى بالعضو الذى يكتفى فيه بالمسح وهو الرأس بين الأعضاء التى يجب غسلها وهى الوجه واليدان والرجلان ، فلولا وجوب الترتيب بينها لكان الواجب بلاغة تأخيره عنها ، ليضمّ النظير إلى نظيره ويؤخَّر غيره عنه ، مع أن الواو فى أصلها لمطلق الجمع ، ولو نظر إلى دلالتها الأصلية وحدها لم يكن فيها ما يوجب الترتيب بين هذه الأعضاء ، وقد نظر غير الشافعى إلى دلالتها وحدها فلم يأخذ بما أخذ

به من وجوب هذا الترتيب ، وللشافعي في هذا مأخذه ، لأن الواو إذا كانت لمطلق الجمع فإن تقديم بعض معطوفاتها على بعض قد يكون لغرض من أغراض التقديم المعروفة .

وبعد فإنه يجب أن نحذر كل الحذر من الإسراف في الاعتماد على هذه التراجم ، وفي تنزيلها منزلة الأصل العربي في كل شيء ، ولا سيما بين المسلمين من غير العرب ، بل يجب أن نسلب خصائص أصلها العربي منها ؛ ليبقى المسلمون من غير العرب في شيء من الحاجة إلى قرآنهم العربي ، وفي شيء من الحاجة إلى اللغة العربية التي نزل بها ، ولا يستغنوا كل الاستغناء بهذه التراجم عنها . وإنه لمن أشد ما يجب أن تبقى اللغة العربية صلة بيننا وبينهم ، فيتعلمها فريق منهم ممن يريد زيادة التفقه في دينه ، ويسعى في أن يبلغ رتبة الاجتهاد فيه . ويتعلمها غيره حبا فيها لأنها لغة القرآن ، ولغة الحديث الشريف . كما يتعلم فريق منا لغاتهم ، لنفهمهم كما يفهموننا ، ويتم التعاون في الدين والدنيا بيننا وبينهم .

٥) ترجمة القرآن للتبليغ لا غير : رد على رد :

قرأت ما كتبه الأستاذ أبو الرشيد في الرد على مقالي — ترجمة القرآن للتبليغ لا غير — وإني أرى قبل البدء في الرد عليه أن ألخص

الأقوال في الترجمة، فقد صارت ثلاثة أقوال: قول المانعين للترجمة مطلقاً، وقول المجوِّزين للترجمة على أن تقوم مقام الأصل العربي في كل شيء، وقولي في تجويز الترجمة على أن تكون لغرض التبليغ لا غير، فلا تقوم مقام الأصل في كونه معجزة، ولا تتخذ للتعبُّد بها في الصلاة وغيرها، ولا لاستنباط الأحكام منها بالاجتهاد فيها. ولاشك أن قولي في هذا وسط بين القولين، وخير الأمور ما كان وسطاً بين الإفراط والتفريط.

وأبدأ بعد هذا في الرد على الأستاذ أبي الرشيد فأقول: إنه ذكر أني أتحكَّم في اصطلاح الأحناف، وفي المعاني التي يقصدونها من فقههم. لأن التفسير عندهم هو أن تفهم المعنى ثم تعبِّر عنه من غير تقيُّد بمحاكاة الأصل في تقديمه وتأخيره. أما الترجمة الحرفية فهي أن تضع لفظاً بدل لفظ محاكيا الأصل في ترتيب جمله ومعانيه بقدر ما تتحمله اللغة التي يترجم إليها، وهذه هي الترجمة التي يقول الأحناف بجواز التعبد بها في الصلاة للعاجز عن العربية، لأنها أقرب إلى الأصل العربي، بخلاف التفسير فإنه بعيد عنه، ولهذا لم يجيزوا الصلاة به.

وإني أقول للأستاذ أبي الرشيد: إن لي حق التحكُّم في اصطلاح الأحناف وفي اصطلاح غير الأحناف، وإن لغيري حق التحكم في ذلك

ذلك أيضاً . على أن ما ذهبت إليه من ضعف مذهب الأحناف فى ذلك وتناقضه فقد شهد به أئمة مذهبهم ، ورجّحوا عليه مذهب غيرهم ، لأنه الموافق للنص الوارد فى ذلك ، وهو قوله تعالى فى الآية — ٢٠ — من سورة المُزَّمِّل (فاقرؤوا ما تيسَّرَ مِنَ القرآنِ) .

ومن هؤلاء الأئمة الأحناف ابن الهمام ، فقد قال فى التحرير : الوجه فى العاجز عن النظم العربى أنه كالأمىّ ، لأن قدرته على غير العربية كلا قدرة ، فكان أمياً حكما ، فلو أدى بالفارسية قصة أو أمراً أو نهياً فسدت الصلاة بمجرد قراءته ، لأنه متكلم بكلام غير قرآن ، لا ذكراً أو تنزيهاً ، إلا إذا اقتصر على ذلك ، فإنها تفسد حينئذ بسبب إخلاء الصلاة عن القراءة .

وقال أبو الحسنات فى آكام النفائس : أشد المذاهب الثلاثة تحقيقاً وأحسنها استدلالا فى مسألة القراءة بالفارسية هو المذهب الأول ، أى عدم الجواز مطلقاً ، سواء فيه العاجز وغيره ، لكونه مستنداً إلى نص الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبه يستدلّ فى هذه المباحث ، وعليه يعوّل ، وأضعفها مذهب الجواز المطلق الذى قال به الإمام ثم رجع عنه ، وبينهما مذهب صاحبيه . ولولا أنه يَرِدُ عليه أن الأبدال لا تنصب بالرأى لكان أحسن المذاهب وأقواها .

فالترجمة الحرفية والترجمة المعنوية والتفسير الخالص كلها سواء في أنها ليست بقرآن ، واتفاق جمهور الأحناف على أن الصلاة لا تجوز بالتفسير إنما يرجع إلى أنه ليس بقرآن . فتجويزهم الصلاة مع هذا بالترجمة وهي ليست بقرآن تناقض أو تحكم . على أني بعد هذا لا أوجب على غير العربي أن يقرأ في الصلاة قرآناً بالعربية كما سبق لي في المقال الأول ، ولا أمنع أن يتعبد بما فيه ذكر أو موعظة أو دعاء من الترجمة أو غيرها ، وإنما أمنع أن يتعبد بهذا على أنه قرآن ، وإنما يتعبد به على أنه ذكر أو دعاء أو موعظة فقط .

ثم استدل الأستاذ أبو الرشيد على تجويز الاعتماد على الترجمة في استنباط الأحكام بأنه مثل ما أجازه العلماء من رواية الحديث بالمعنى ، لأن الحديث من أصول الاجتهاد كالقرآن . فإذا جاز الاعتماد فيه على رواية الحديث بالمعنى . فليجز الاعتماد فيه على ترجمة القرآن أيضاً .

ولا شك أن هذا من الأستاذ أبي الرشيد قياس مع الفارق . لأننا في القرآن الكريم أمام نص عربي مقطوع به ، فيجب الاعتماد عليه وحده لا على ترجمته . لأن الترجمة تفسير والتفسير اجتهاد ولا يبنى اجتهاد على اجتهاد ، وإنما يجب الرجوع إلى الأصل الذي وقع فيه الاجتهاد ، وكذلك شأن الحديث إذا ثبت بالدليل القاطع أنه هو اللفظ الذي

نطق به النبي صلى الله عليه وسلم ، فيجب أن يرجع إليه وحده لا بما ثبت أن فيه اختلافاً ما عنه . كما روى عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله الله عليه وسلم أنه قال « إن الميت ليعذب ببكاء الحي أو ببكاء أهله عليه » فلما سمعته عائشة أنكرته وذكرته على الوجه الصحيح الذي ورد به ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ على يهودية يبكي عليها أهلها بعد موتها فقال « إنهم ليبكون عليها وإنها لتعذّب في قبرها » وعلى هذا يكون عذابها في قبرها لكفرها لا لبكاء أهلها عليها ، لأنه لا تزرُ وازرة وزر أخرى ، فيجب أن يعوّل في هذا على رواية عائشة لا على رواية ابن عمر ، لأنه رواه بالمعنى وأخطأ في فهمه له . أما عائشة فروته بلفظه كما سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الموافق لأصول الإسلام من أنه لا تزر وازرة وزر أخرى .

ولا بُدّ من التنبيه هنا على خطأ الناس في فهم جواز رواية الحديث بالمعنى ، فإنهم يفهمونه على أن هذا يقع من الرواة بالتشهّي ، ومن غير ضرورة تدعو إليه ، مع أن الحقيقة خلاف ذلك ، وإنما هو أن يتردّد الراوي بين لفظ ومرادفه أنه سمعه ممن روى عنه أو من النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا يصح أن نمنعه من رواية هذا الحديث من أجل هذا التردّد في بعض ألفاظه ، وهو تردد لا يؤثر في المقصود منه ، لأنه

لا فرق فى هذا بين لفظ ومرادفه . وقد ينسى الراوى لفظ الحديث ولا ينسى معناه ، فلا يصح أن نمنعه من رواية هذا المعنى بألفاظ تؤديه من عنده . ولا شك أننا سنكون فى الحالين أمام عجز عن معرفة النص الأصلى لنسيان الراوى له ، فلا نجد إلا أن نأخذ بألفاظه التى رواه بها ، على أن نقيسها بالأصول المعلومة من الدين بالضرورة ، ونزنها بميزانها الصحيح فى ذلك ، وبهذا يكون قياس الترجمة مع أصلها العربى المعلوم على هذا قياسا مع الفارق .

ثم أراد الأستاذ أبو الرشيد أن يطمئننى من جهة استعمال الترجمة فى الاجتهاد واستنباط الأحكام بأن صلاحية العلماء الدارسين للقرآن العربى للاجتهاد وكفايتهم له الآن محل نظر ، فكيف بمن لا يعرف العربية من العلماء غير العرب ؟

وإنى أرد على هذا أولا بأننا نتكلم على صلاحية الترجمة للاجتهاد واستنباط الأحكام منها بقطع النظر عن وجود من يصلح لذلك من العلماء العرب وغيرهم وعدم وجوده ، لأن وجود من يصلح لذلك وعدم وجوده لا يهم فيه .

وأرده عليه ثانيا بأنه لا يصح أن نستمر فى إظهار عجزنا عن الاجتهاد فى عصر ظفر العلم فيه طفرات قوية ، ولم يكن هذا إلا بفتح

باب البحث على مصراعيه أمام العلماء من أهل أوربا وغيرهم ، فلنفتح باب الاجتهاد على مصراعيه أيضاً لعلمائنا ، لأن فتحه كفيل بوجود من يتطلع من العلماء إليه ، وكفيل أن يجعلهم يعدّون أنفسهم له . أما إظهار اليأس من ذلك فهو الذى يقعد بعلمائنا عن أخذ أنفسهم بما يلزم لتكوين ملكة الاجتهاد فيها ، وبهذا يستمرون فى عجزهم عنه .

هذا ويجب أن أختم بحثى فى هـذا الموضوع بالتنبيه على خطأ بعض الحنفية فى اعتدادهم بالترجمة الحرفيـة ، وإيثارها على الترجمة المعنوية فى جواز التعبد بها فى الصلاة لأنها أقرب منها إلى الأصل . فإن الترجمة الحرفية دون الترجمة المعنوية بمراحل ، ولا يوجد أضعف أسلوباً من الترجمة الحرفية من لغة إلى لغة ، لأن كل لغة لها أسلوبها وخصائصها ، وحمل لغة على أسلوب أخرى بمحاكاته بالترجمة الحرفية يجعلها فى غاية الضعف والركة ، وبهذا تكون أبعـد عن أصلها من الترجمة المعنوية ؟

قصة اصحاب الفيل

١) قصة أصحاب الفيل فى القرآن والشعر الجاهلى :

كانت قصة أصحاب الفيل فى العام الذى ولد فيه النبى صلى الله الله عليه وسلم ، وقد أشار القرآن الكريم إليها فى سورة الفيل (ألمْ تَرَ كيفَ فعلَ ربُّكَ بأصحابِ الفيلِ ، ألمْ يجعلْ كيدهمْ فى تضليلٍ ، وأرسلَ عليهمْ طيراً أبابيلَ ، ترميهمْ بحجارةٍ منْ سِجيلٍ ، فجعلهمْ كعصفٍ مأكولٍ) وذلك أن الحبشة لمّا استولت على اليمن أرادت أن تهدم الكعبة التى يجتمع العرب على تعظيمها والحج إليها ، فتجمع بينهم كل سنة فى موسم الحج لتشعرهم بوحدتهم ، ولتذكرهم بماضيهم فى الدين ، لعلهم يرجعون إليه فى يوم من الأيام ، فأرادت الحبشة أن تقضى على أمل العرب فى الوحدة بهدم الكعبة والاستيلاء على مكة ، فأرسلت إليها جيشاً بقيادة أبرهة الأشرم ، فلما وصل إلى مكة ولم يكن لأهلها قوة بهم أرسل الله عليهم طيراً أبابيل أى جماعات جماعات من الطير ، فجعلت ترميهم بحجارة من سجيل أى طين مطبوخ بالنار ، فجعلتهم كعصف مأكول أى كورق زرع أكلته الدواب وداسته فتفتّت واسودّ ، وقد أراد الله أن يحفظ هذا البيت

الكريم من الهدم ليطهره بالإسلام من عبادة الأصنام ، لأن هدم بيوت الله ليس فى شىء من سنن الإصلاح .

فهذا ما أشار إليه القرآن فى إيجاز بالغ من قصة أصحاب الفيل ، وقد وردت القصة بتفصيل أكثر فى الشعر الجاهلى ، وكان الذين قالوه فيه شهود عيان لهذه القصة ، ومن الواجب الرجوع إليه فى شرحها ، ولكن المفسرين لم يشاءوا الرجوع إليه والوقوف عند حده ، وآثروا عليه أساطير اخترعوها أو كانت مما يتناقله العامة وأشباههم عن هذه القصة ، وللعامة وأشباههم مبالغاتهم وتهاويلهم فيما يروونه من أخبارهم.

ولهذا اضطرب المفسرون فى تلك الطير الأبابيل اضطراباً عظيماً ، فقال بعضهم إنها كانت طيراً خضرا ، وقال بعضهم إنها كانت طيراً سودا ، ثم اختلفوا فى أنها كان لها خراطيم كخراطيم الفيل وأكف كأكف الكلاب ، أو أنها كان لها رؤوس مثل رؤوس السباع ، ثم اختلفوا فى أن كل طائر منها كان يحمل حجراً واحداً ، أو كان يحمل ثلاثة أحجار فى منقاره ورجليه ، وقد كتب على كل حجر اسم صاحبه من جيش أبرهة ، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره ، وقد رووا عن ابن عباس رضى الله عنه أنه لم يقع حجر على واحد منهم إلا نفط جلده ، وأصابه مثل الجُدَرِىّ ، وكانت العرب لا تعرف هذا

المرض قبل هذه الحادثة ، إلى غير هذا من الأقوال المضطربة ، والأساطير التى لا داعى إليها فى هذه القصة ، لأنها لم تكن إلا عناية من عنايات الله التى تمر بالناس كل يوم ، فهى مما يعتاد من عناياته ، وليست معجزة من المعجزات التى يؤيد بها رسله ، لأنه لم يكن ثمة رسول فى هذه القصة ، فلم يكن هناك داع إلى معجزة ، ولم يكن هناك داع إلى تلك المبالغات والأساطير فى هذه العناية الإلهية التى لا تخرج عن العنايات الإلهية المعتادة .

ولهذا ذكر الفخر الرازى فى تفسيره أن العلماء أنكرت ما روى من أن تلك الأحجار كانت تقع على الرأس فتخرج من الدبر . لأنها كانت فيما روى حجارة صغيرة أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة ، فلا يكون فيها من الثقل ما تقوى به على ذلك . ولنا أن نقيس على إنكار هذه الأسطورة إنكار غيرها من الأساطير الواردة فى هذه القصة .

وقد ذكر الأستاذ محمد فريد وجدى فى دائرة معارف القرن العشرين أن اختلاف الروايات فى أمر تلك الطير الأبابيل يدلنا على أنه لا يوجد فيها نص صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم اختار أن تلك الطير لم تكن كما ذكر أولئك المفسرون والمؤرخون

وإنما كانت بعوضا أو مِكْرُوبات حملت إليهم طاعونا أو حُمّيات خبيثة، ولكن هذا يمنعه عندى ما جاء فى سورة الفيل من أن تلك الطير كانت ترميهم بحجارة من سجيل، لأن البعوض والميكروبات لا تقوى على حمل الحجارة، ولا يمكن أن ترميهم بها.

فليس أمامنا إلا أن نرجع بعد اضطراب تلك الروايات فى تلك الطير الأبابيل إلى الشعر الجاهلى الذى ورد فيها، وكان أصحابه ممن عاصروا تلك القصة، والشعراء على كل حال أحسن حالا فيما يروون فى أشعارهم من العامة وأشباههم، لأنه كانوا الطائفة المثقفة من العرب فى الجاهلية، وقد جاءت روايات عن عمر بن الخطاب وغيره بالاعتماد على أشعارهم فى تدوين أخبار ذلك العصر الجاهلى.

وممن جاء عنه شعر فى تلك القصة أمية بن أبى الصلت الثقفى، وهو من أهل الطائف، وكان له اتصال معروف بأهل مكة، وهذه قصيدة له فيها، وقيل إنها لأبى قيس بن الأسلت، ولكن الراجح أنها له.

ومن صنعه يومَ فيل الحبو ... ش إذْ كلما بعثوه رزَمْ

محاجنُهم تحت أقرابِهِ ... وقد شرموا أنفه فانخرم

وقد جعلوا سوطه مغولاً　　إذا يمموه قفاه كلم (١)
فولى وأدبر أدراجه　　وقد باء بالظلم من كان ثم
فأرسل من فوقهم حاصباً　　فلفهم مثل لف القزم
تحض على الصبر أحبارهم　　وقد ثأجوا كثؤاج الغنم

وقال أيضاً في تلك القصة :

إن آيات ربنا ثاقبات　　لا يمارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل　　مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب رحيم　　بمهاة شعاعها منشور (٢)
حبس الفيل بالمغمس حتى　　ظل يحبو كأنه معقور
لازماً حلقة الجران كما قطـ　　ـر من صخر كبكب محدور (٣)
حوله من ملوك كندة أبطا　　ل ملاويث في الحروب صقور
خلفوه ثم ابذعروا جميعاً　　كلهم عظم ساقه مكسور
كل دين يوم القيامة عند الله　　ـه إلا دين الحنيفة بور

وقال أبو قيس بن الأسلت فيها أيضاً :

قوموا فصلوا ربكم وتمسحوا
بأركان هذا البيت بين الأخاشب (٤)

---

(١) كلم : جرح (٢) المهاة الشمس (٣) كبكب : جبل (٤) الأخاشب جبال مكة

نعندكمُ منه بلاءٌ مصدّقٌ

غداة أبي يكسومَ هادى الكتائب

كتيبته بالسهل تمشي ورجلهُ

على القاذفات في رؤوس المناقب

فلما أتاكم نصر ذى العرش ردّهم

جنود المليك بين سافٍ وحاصب

فولّوا سراعاً هاربين ولم يؤبْ

إلى أهله مِلْحبشِ غير عصائب[1]

وقال نفيل بن حبيب فيها أيضاً :

ألاَ حُيّيتِ عنا يارُدَيْنَا نعمناكم مع الإصباح عَيْنَا

ردينةُ لو رأيتِ فلا تَرَيْهِ لدى جنب المحصّب مارأينا[2]

إذنْ لعذرتنى وحمدتِ أمرى ولم تأسَىْ على مافات بينا

حمدتُ الله إذ أبصرت طيراً وخفتُ حجارةً تلقى علينا

وكلّ القوم يسأل عن نفيل كأنّ علىّ للحبشان دَيْنَا

فهذه الأشعار ليس فيها شيء من تلك الأعاجيب والأساطير الواردة في روايات المفسرين عن تلك الطير الأبابيل ، فتكون حينئذ

---

(١) ملحبش : من الحبش (٢) المحصب مكان بمكة

تلك الأعاجيب من اختراع العامّة وأشباههم ، لأنها لو كانت صحيحة لوردت فى تلك الأشعار التى جاءت فى تلك القصة ، لأن أصحابها كانوا ممن شاهد تلك الحادثة أو عاصرها ، فتكون أشعارهم هى الحَكَم فى تلك القصة لا روايات العامة وأشباههم .

ومما يلاحظ أن ما ذكرنا من أشعار أميّة بن أبى الصّلت وأبى قيس بن الأسلت لم يَرِد فيها ذكر لتلك الطير الأبابيل ، وإنما ذكر فيها أن الله أرسل على أصحاب الفيل ريحاً بين حاصب وساف ، والحاصب الريح الشديدة تحمل الحصباء ، وهى دقاق الحصى ، وكذلك السحاب الذى يرمى بالبَرَد ، والريح السافى الذى يحمل التراب ، ومن الممكن حمل الطير الأبابيل الواردة فى سورة الفيل على تلك الرياح بما فيها من الحجارة والأتربة التى تذهب هنا وهناك بفعل الريح كالطير ، ويكون تقدير الآية فأرسلنا عليهم رياحا بحجارة وأتربة كطير أبابيل ، ثم حذف المشبه وأداة التشبيه على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية ، وبهذا لا تكون إلا ريحا صرصراً عاتية كالريح التى أهلكت بها عاد ، ولا فرق إلا أن ريح عاد كانت معجزة لهود أهلك بها قومه لتكذيبهم له بعد إنذارهم بها ، أما ريح أصحاب الفيل فكانت من عناية الله المعتادة كما سبق .

ومما شُبِّه أيضا بالطير الأبابيل نزول الملائكة فى بدر ، وهو شبيه بما حدث فى قصة أصحاب الفيل ، كما قال بعضهم :

جبريلُ فى ألف وميكال فى ... ألف ويتلوهم سرافيلُ

ليلة بدر مدداً أنزلوا ... كأنهمُ طير أبابيل

أما شعر نفيل بن حبيب فقد ورد فيها ذكر الطير فى قوله :

حمدتُ الله إذ أبصرت طيراً ... وخفتُ حجارة تلقى علينا

فيمكن حملها على تلك الريح أيضاً كما حملت عليها فى الآية ، ويمكن أن تبقى الطير على حقيقتها فيهما ، وتكون طيراً حملتها الريح بشدتها كما حملت الحجارة والأتربة ، أو تكون طيراً تبعت جيش الحبشة كما تتبع الطيور الجيوش فى حروبها . وقد ورد هذا كثيراً فى الشعر ، كما قال بعضهم :

وترى الطير على آثارنا ... رأىَ عينٍ ثقةً أنْ ستمارْ

وحينئذ يكون رمى تلك الطير للحجارة التى تحملها الريح بأجنحتها فى طيرها ، لا بمناقيرها ونحوها مما يجعلها أعجوبة ، فإنه لا داعى إلى جعل تلك العناية بالكعبة من الخوارق ، لأنه لم يكن فيها رسول من رسل الله يتحدى من يكذبه بمثل ذلك كما سبق ، ولا داعى إلى تلك المبالغات التى لا يرتاح إليها العقل ، ولا تطمئن لها النفس .

(٢) قصة أصحاب الفيل فى الرواية العربية والرواية اليونانية :

نشرت مجلة الرسالة فى عددها - ٣٤٩ - مقالا للأستاذ إسماعيل أحمد أدهم بعنوان - عام الفيل وميلاد الرسول قد يثير حملة عنيفة عليه من بعض من يحلو لهم إيثار العنف فى الجدال فى أمور الدين ولما كنت أكره هذا النوع من الجدال لأن الحق يضيع فيه بهذا العنف أردت أن أبادر بتحقيق ما جاء فى هذا المقال بالهدوء والحكمة التى أمرنا القرآن الكريم أن نأخذ الناس بها فى الدعوة ، ليتبين فيه الحق من الباطل ويمكن الوصول فيه إلى الاقناع والاقتناع من غير طعن فى عقيدة أو تجريح فى دين ، فليس كل ما فى المقال مما يؤخذ على صاحبه بل فيه ما يحمد له .

فما يحمد له ما مهد به لما يراه فى قصة أصحاب الفيل من أن مؤرخى أوربا فى العصر الحديث كانوا يشكون فى صحة هذه القصة وينكرون ما جاء فيها من تعرض الحبشة لمكة والحجاز بعد استيلائهم على اليمن إلى أن قام الأستاذ تيودور نولدكه بمباحثه الدقيقة فى هذا الموضوع فأثبت أن بركوب المؤرخ اليونانى تحدث عن تعرض الأحباش لمكة والحجاز بتحريض الروم فثبت لدى مؤرخى أوربا أن لهذه

القصة أصلا من الصحة ، فهذا مما يحمد للأستاذ ولا يصح إنكاره عليه ، لأنه يؤيد ما جاء به القرآن من ذلك لدى هؤلاء المؤرخين ، وهم لا يعترفون بصحة ما جاء فيه إلا إذا كان مؤيداً بسند من التاريخ ، ولا شك أن تأييد ما يجيء به القرآن من هذا ونحوه بسند من التاريخ يفيد القرآن ولا يضره .

ولكنه ذكر بعد هذا أنه من حين أن قام الأستاذ تيودور نولدكه بذلك اتخذت الدراسات التاريخية وجهة جديدة تمحص فيها الروايات العربية على أساس الروايات اليونانية ، لأن الروايات العربية تأخر العهد بتدوينها نحو ثلاثة قرون ، وكانت تعتمد قبل تدوينها على الحفظ والمشافهة ، فدخلها أثناء ذلك كثير من الأساطير .

فهذا لا يصح تسليمه للأستاذ على الإطلاق ، لأن لمسائل التاريخ مقاييس يجب أن تؤخذ بها الرواية اليونانية كما تؤخذ بها الرواية العربية ، ولا يمكن أن تعلو رواية من الروايات على مقاييس التاريخ ، فهي التي يجب التعويل عليها ، ولا يمكن التعويل على كل رواية مدونة على الإطلاق ، ولا رفض كل رواية تعتمد على الحفظ والمشافهة على الإطلاق ، لأن مقاييس التاريخ قد تؤيد الرواية الثانية على الرواية الأولى .

على أن الصحيح أن الرواية العربية لم تكن تعتمد على مجرد الحفظ والمشافهة ، وأنه لم يتأخر العهد بتدوينها إلى أن مرّت عليها قرون ثلاثة ، لأنه كان بجانب الرواية الشفوية رواية قديمة مدوّنة ، كانت موجودة قبل الإسلام فى الخط الحميرىّ القديم باليمن ، ولا تزال آثار هذا الخط قائمة مما بقى من آثار الحميريين ، كما كانت موجودة بالخط الحيرىّ والأنبارى ، وكان المناذرة يكتبون به فى العراق ، ثم انتقل منهم إلى عرب الحجاز ، فاتصل التدوين به بعد الإسلام ، وقد ظهرت كتب كثيرة مدوّنة فى التاريخ من أول عهد بنى أميّة ، ومن هذا كتاب وهب بن منبّه الذى ذكره المسعودىّ فيما ألّف من الكتب التاريخية قبل كتابه — مروج الذهب — وقد كتب عدىّ بن زيد العِبادى فى التاريخ قبل الإسلام ، وهو شاعر قديم معروف ، خدم فى ديوان كِسْرَى وفى ديوان المناذرة ، وكان يعرف العربية والفارسية ، ولا أحب أن أطيل فى إثبات هذه الرواية العربية المدوّنة قبل الإسلام وبعده ، فقد اعترف بها كثير من العلماء المنصفين فى عصرنا ، وكان الجدير بالأستاذ أدهم أن يجعل تأييد الرواية اليونانية للرواية العربية فيما ذكرناه من تعرُّض الأحباش لمكة والحجاز حُجّة لها لا عليها ، حتى

لا ينفع فيما وقع فيه فى أمر الخلاف بين الرواية العربية والرواية اليونانية فى هذه القصة .

فقد ذكر الأستاذ أدم بعد هذا أن هناك خلافا بين الرواية اليونانية والرواية العربية فى سبب حادثة الفيل ، فالرواية اليونانيـة تذكر أن جوستنيان ملك الروم طلب مساعدة النجاشىّ له على الفُرْس فيما بينهما من حروب ، وكان النجاشىّ يرى أن هذه المساعدة غير ممكنة ، لأنه لم يكن له أسطول يمكنه به غزو الروم من جهة الخليج الفارسىّ ، ولم يكن فى إمكانه إرسال حملة إلى التخوم العربية الفارسية لقيام الصحراء العربية بينه وبينها ، فكان يماطل ويعتذر فى هذه المساعدة إلى أن اشتد النزاع بين الروم والفرس سنة ٥٤٠ م ، فأرسل جوستنيان سفيراً إلى النجاشى يستحثّه على ذلك ، فأمر أبرهة واليه على اليمن أن يرسل قسما من جيوشه لمساعدة الروم ، فذهبت شمالا قاصدة التعرّض للتخوم الفارسية ، لأنه لم يكن أمامها إلا هذا الطريق الذى يمرّ بمكة ، وينتهى عند وادى الرّمّة ، وهو أحد روافد الفرات فيما مضى من الزمن ، فلما وصلت تلك الحملة إلى الحجاز كان التعب قد أعياها ، وكان المرض قد أفنى معظم رجالها ، لأنهم أصيبوا بمرض الجُدَرِىّ الذى فتك بكثير من جنودهم ، فاضطرّت الحملة إلى الرجوع من حيث أتت ، واعتذرت لما حصل لها إلى ملك الروم .

أما سكان الحجاز فقد هالهم أمر هذه الحملة ، وتوهموا أنها تريد الاستيلاء على بلادهم ، فلما أصيب جنودها بما أصيبوا به أيقنوا أن هذا من عناية الله بهم ، وبنوا عليه من أساطيرهم ما بنوا ، فزعموا أن أبرهة كان قد بنى بيتاً فى صنعاء باليمن ليصرف به العرب عن الكعبة ، ثم ذهب بتلك الحملة إليها ليهدمها ، مع أن المصادر المسيحية لا تشير إلى بناء هذا البيت بصنعاء ، وقد تعرض المؤرخ أوزيب فى بحثه عن تاريخ الكنيسة إلى نصارى العرب وذوى المآثر فيهم على الكنيسة المسيحية ، ولم يذكر شيئاً عن أبرهة ، ولا عن بنائه لذلك البيت .

وهكذا يجارى الأستاذ أدم أولئك الذين كانوا يطعنون فى صحة هذه القصة من أصلها قبل أن يؤيدها الأستاذ تيودرونولدكه بما أيدها به ، فى حين أنه لم يجارهم فى إنكارهم لوجود فيل فى هذه الحملة ، وسيأتى تفصيل إنكارهم لهذا والرد عليه ، مع أن دفع تحاملهم على الرواية العربية فى بيان سبب هذه الحملة أسهل من دفع تحاملهم عليها فى ذكرها لفيل كان معها ، ولو أنه لم يجارهم فى ذلك كما لم يجارهم فى هذا لجاء مقاله متّسقا فى سياق البحث ، وفى طريق الموازنة بين الروايات ، ولكان شكرنا له على إنصاف الرواية العربية شكراً خالصاً ، لا يشوبه

يقصدون

شىء من اللوم على مجاراتهم فى أمر يقصدون به التشكيك فيما رواه القرآن عن هذه القصة من ناحية أخرى ، بعد أن كانوا يشككون فى صحتها من أصلها ، إلى أن أثبت لهم الأستاذ تيودور نولدكه صحتها بما سبق له .

وإنما نبادر أولاً فنذكر أن القرآن الكريم ليس فيه شىء عن بيان سبب تلك الحملة الحبشية ، فليكن سببها ما ذكرته الرواية اليونانية لا العربية ، وليكن سببها ما ذكرته الرواية العربية لا اليونانية ، فقد اتفقت الروايتان على ما جاء فى القرآن من أن الحملة وصلت إلى الحجاز ومكة ، وأنها رجعت من حيث أتت بعد وصولها إلى ذلك لما أصابها من مرض الجُدَرِىّ وغيره ، ونحن إذا سلمنا بأن سبب تلك الحملة هو ما ذكرته الرواية اليونانية ، فإنها لا بُدّ أن تستولى فى طريقها إلى مساعدة الروم على الفُرْس على ما تمرّ عليه من البلاد ، لتؤمن طريقها إليهم ، وتأمن من قطع خط رجعتها عند الانتهاء من مقصدها ، ولو أنها مضت فى طريقها إلى نهايته ووصلت إلى مقصده لما تركت ما استولت عليه من البلاد فى طريقها ، كما هو شأن كل فاتح أجنبى ، لأنه لا مقصد له إلا فتح البلاد ، ولا يعقل أن يستولى على بلد ثم يتركها من نفسه لأهلها ، كما لا يعقل أن يستولى على اليمن ولا تحدثه نفسه

بالاستيلاء على جميع البلاد العربية ، لأنه لا يستقر له الحكم فى بلد فيها إلا بالاستيلاء عليها جميعاً .

فحينئذ يكون الأحباش قد أرادوا الاستيلاء على مكة فى طريقهم إلى مساعدة الروم على الفُرْس ، وهم قوم يدينون بالنصرانية من قديم ، وللنصرانية تاريخ قديم فى التبشير ، فلا يعقل أن تقصد إلى الاستيلاء على مكة ولا تقصد هدم الكعبة ، لأنها فى نظرها بيت عبادة أصنام ، وهى لم تتورع عن تخريب بيت المقدس ، مع أنه لم يتحول إلى بيت عبادة أصنام كالكعبة ، وهذا إلى أن قريشاً ومعها أهل الحجاز كانوا مناصرين لِلفُرْس على الروم ، وغاضبين لِما فعلته الحبشة باليمن ، ولهذا بعثوا وفد تهنئة منهم إلى سيف بن ذى يَزَن حين استرد اليمن منها بمساعدة الفرس له .

وحينئذ يكون أهل الحجاز صادقين فيما أدركوه من قصد الأحباش للاستيلاء على بلادهم ، وهذا لا يمنع من أنهم كانوا يقصدون مع هذا مساعدة الروم على الفُرْس ، لأنه لا تناقض بين الأمرين ، بل إن مساعدة الفرس كانت تقتضى منهم الاستيلاء على الحجاز ، لأنها لا تتم لهم إلا بالاستيلاء عليه ، وحينئذ يكون هناك سببان لقيام الحملة الحبشية من اليمن إلى الحجاز لا سبب واحد ، والشىء الواحد قد تتعدد أسبابه

إلى اثنين أو أكثر ، ولا يلزم أن يكون له سبب واحد ، وقد ذكرت الرواية العربية السبب الذى يهمها من قصد الاستيلاء على الحجاز ، وذكرت الرواية اليونانية السبب الذى يهمها من قصد مساعدة الروم على الفرس .

ويبقى بعد هذا أمر تلك الأساطير التى ذكر الأستاذ أدهم أن أهل الحجاز اخترعوها بعد أن ارتد الأحباش عنهم بما أصابهم من مرض الجُدَرِىّ وغيره ، ونحن لا يهمنا أمر تلك الأساطير بعد أن ذكرنا أن ما جاء فى القرآن الكريم لا يفيد أكثر من أن ردّ الأحباش عن مكة لم يكن بقوة أهلها ، لأنهم لم يكن لهم قوة بهم ، وإنما كان بما أصابهم من مرض الجُدَرِى ، وبما أصابهم من الإعياء بفعل تلك الرياح العاتية ، ولا شىء فى أن ينسب مثل هذا إلى العناية الإلهية من الريح قوم يؤمنون بالله ويعتقدون أن ما يصيبهم من خير أو شر بإرادته ، وإنكار العناية الإلهية فى مثل هذا لا يقبل إلا من ملحد لا يؤمن بالله تعالى ، ولا يؤمن بأن ما يصيبنا من خير أو شر بإرادته ، وحينئذ يكون للمسألة وجه آخر غير ما نحن فيه ، ولا يصح أن نخلط فى البحث فننقله إليه .

ولا يفوتنا بعد هذا أن نذكر أنه كان هناك سبب تجارى يدعو الأحباش

إلى الاستيلاء على مكة ، وهى أنها كانت مركزا تجاريا مهمًا بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وكان أهلها هم الذين يقومون بالتجارة بين الشام واليمن ، فيوصلون تجارة الشرق للغرب وبالعكس ، فلما استولت الحبشة على اليمن انقطعت تلك التجارة ، لأنهم سلكوا مسلك العداء للحبشة ، وناصروا سيف بن ذى يَزَن فى سعيه لطردهم من اليمن ، فلم يكن لهمُ بدٌّ من الاستيلاء على مكة لهذا السبب أيضا ، ولم يكن قصدهم للاستيلاء عليها من أجل غرض دينى بحت ، وإنما كان لأغراض دينية وسياسية وتجارية .

على أن الرواية اليونانية لا تخلو من مآخذ فيما ذكرته من سبب الحملة الحبشية ، لأن بروكوب فيما نقل عنه يقدر أن الأحباش بتحريض الروم حاولوا مساعدة جوستنيان بالهجوم على الفُرْس ، ولكن محاولتهم وقفت عند الحجاز . فهذا يفيد أن بروكوب يبنى على تقديره ماذكره من سبب تلك الحملة ، وهذا يدل على إنه لم يكن يعرف يقينا سببها ، وإنما كان هو مجرد تقدير واجتهاد منه ، والاجتهاد يخطىء ويصيب ، ولا يفيد إلا مجرد الظن

وكذلك ما ذكروه من أن أوزيب فى بحثه عن تاريخ الكنيسة قد ذكر نصارى العرب وقسيسيهم وذوى المآثر منهم على الكنيسة ولم

يذكر شيئا عن أبرهة ، ولا عن بنائه لذلك البيت الذى أراد هـــدم الكعبة من أجله ، لأنهم عادوا فاستظهروا أنه كان باليمن قسيسون على عهد الأحباش ، ولا بد أنهم اتخذوا لهم بيتا فى صنعاء ، وأن بناءه كان نواة لتلك الأسطورة التى تزعم أنه بنى ليكون نظيرا للكعبة ، ولكنهم عادوا فذكروا أن تلك الأسطورة لا يمكن تصورها ، ولا سيما أن الأحباش إذا فعلوا هذا فإنما تكون محاولتهم عند نصارى العرب ، وقد كانوا مصروفين بحكم دينهم عن الكعبة ، وإذا حملنا ذلك على رغبة التبشير المسيحية بين العرب فإن مثل هذا الحادث الخطير لا يمكن أن يمر من غير إشارة اليه فيما كتب فى تاريخ الكنيسة الشرقية ، ولا شك أن ما ادّعوا أنه لا يمكن تصوره هو القريب من التصور ، لأن النصرانية تفرض على أبنائها التبشير بها ، فلا يبعد أن يحاولوا هـــدم الكعبة ليقضوا على عبادة الأصنام ، ويقوموا بما توجبه النصرانية عليهم من القضاء عليها .

وهناك مآخذ أخرى على الرواية اليونانية وتعليقهم عليها نتركه خوف الإطالة ، لنرد على ما ذكروه من انكار وجود فيل مع تلك الحملة ، لأن ما شغبوا به فيه ربما يؤثر على بعض العقول الضعيفة ، فقد ذكروا فيما استدلوا به على إنكارهم لذلك أنه لا يمكن الاحتفاظ بالأفيال فى اليمن ،

وأنه لا تمكن السير بها فى صحارى نجران ، ولو أمكن هذا فأنى يكون للاحباش أفيال تحارب بها ؟ والأفيال الإفريقية غير قابلة للإيلاف والتدريب ، ولم يكن لهم أسطول يمكنهم به نقل أفيال مدربة من الهند ، وقد أنصف الأستاذ آدم فى الرد على هذا بأنه مجرد استبعاد لا يصح أن يقام له وزن بإزاء اتفاق مؤرخى العرب على تسمية تلك الحملة بحملة أصحاب الفيل ، وبأن الأحباش استعانوا فى نقل جيوشهم من الحبشة إلى اليمن بأسطول الروم ، فيمكن أن يستعينوا به أيضاً فى نقل أفيال مدرّبة على الحرب من الهند ، وإنى أضيف إلى ما ذكره فى الرد على هذا بأن الأفيال المدربة على الحرب قد وجدت بعد الإسلام فى حرب القادسيّة بالعراق ، والعراق قريب من اليمن والحجاز ، فلا يستبعد بعد هذا وجود أفيال فيهما كما وجدت فيه .

وبعد فكم فى ذكر القرآن الكريم لتلك الحملة بذلك الإيجاز المعجز من دلالات على أنه تنزيل من حكيم عليم ، ولو كان من عند غيره لخدعته تلك الأساطير التى جاءت فيها ، فمضى فى تطويل سورة الفيل بها ، إرضاء لشهوات العامة وأشباههم فى تلك الأساطير ، فليمض القرآن الكريم معجزة باقية على الدهر ، وليظهر له من أسانيد علم التاريخ ما يؤيده فى كل عصر ؟

القران والنثر الفنى

١) هل القرآن من شواهد النثر الفنى الجاهلى ؟ :

يدور الآن خلاف كبير فى أن الشعر أسبق وجوداً من النثر الفنىّ أو الأمر بالعكس ، ويرى بعض علماء أوربا المشتغلين بدراسة اللغة العربية وآدابها أن النثر الفنىّ فيها لم يكن له وجود فى العصر الجاهلى ولا فى صدر العصر الإسلامى ، وإنما وجد فيها بعد ظهور عبد الحميد الكاتب وعبد الله بن المقفّع فى أواخر دولة بنى أُمَيّة وأوائل دولة بنى العباس ، وهو الرأى الذى تلقفه منهم الأستاذ طه حسين ونسبه إلى نفسه ، وشغل به المشتغلين بتاريخ أدب اللغة العربيه وقتاً غير قصير ، ولا يزالون مختلفين فيه بين منكر له ومؤيِّد له .

وقد أراد الأستاذ زكى مبارك أن يظهر برأى جديد على حساب القرآن يثبت وجود النثر الفنى قبل الإسلام بدليل قاطع ، فقال فى ذلك : إن القرآن وإن أجمع المسلمون على تفرّده بصفات أدبية لم تكن معروفة فى ظنهم عند العرب يعطينا صورة للنثر الجاهلى ، وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصورَ النثرية الجاهلية ، لأن القرآن نزل لهداية أولئك الجاهليين ، وهم لا يخاطَبون بغير

ما يفهمون، وقد جاء فيه نص صريح على أن الله لا يرسل رسولا إلا بلسان قومه ليبين لهم، كما قال تعالى فى الآية — ٤ — من سورة إبراهيم (وما أرسلنا من رسولٍ إلاّ بلسانِ قومِهِ) فلا يمكن أن يحدث النبي قومه بما ينبو عن أذواقهم وأفهامهم، أو يخرج عما ألفوا من طرائق التعبير والبيان.

ويظن الأستاذ زكى مبارك أنه بهذا أتى بالمعجز لمن ينكر وجود نثر فنى عند العرب قبل الإسلام، ويذكر أنه أدلَى به للأستاذ مرسيه فأخذ يبحث عن مخرج منه، ولكنه لم يهتد إليه، وقد مضى على هذا ما مضى من الزمن، كما يذكر أنه حينما بلغ الأستاذ طه حسين اضطرب فى الخروج منه، حتى أعلن فى بعض دروسه فى الجامعة أن القرآن لا هو شعر ولا هو نثر، وإنما هو قرآن لا غير.

وليكن هذا شأن ذلك الرأى عند الأستاذ مرسيه والأستاذ طه حسين، وليكن موقفهما موقف العجز عن الوصول إلى مخرج منه، فإننا لا يهمنا وقوفهما منه ذلك الموقف، وإنما يهمنا منه ما قد يترتب عليه من التهوين من أمر ناحية من أهم نواحى إعجاز القرآن، لأنه يجعل نثره صورة من نثر أهل الجاهلية، ولا يرى بينهما إلا فرقاً قليلا لا يؤثر فى الاستشهاد به على وجود نثر فنى عندهم قبل الإسلام.

فلو كان ذلك أمر نثر القرآن من نثرهم لأمكنهم أن يأتوا بمثله حين تحدّاهم النبي صلى الله عليه وسلم به ، مع أنهم كانوا متلهفين على وسيلة تبطل دعواه للرسالة ، لأنه كان يسفّه ما كانوا عليه هم وآباؤهم من عبادة الأصنام ، ويطعن في عقولهم إلى أن يجعلهم كالأنعام بل أضلّ ، فلو كان هذا شأن القرآن لأتوا بمثله ، ودفعوا عن أنفسهم هذا التسفيه لأديانهم وعقولهم .

ولو كان القرآن صورة مألوفة من نثرهم لما اضطربوا في أمره ذلك الاضطراب ، حتى قالوا عنه مرة إنه شعر ، ومرة إنه سحر ، ومرة إنه كهانة ، ومرة إنه أساطير الأولين ، ومرة إنه من تعليم بعض الأعجميين ، فمثل هذا الاضطراب لا يقع في شيء مألوف لهم ، ولا في شيء طرائقه معروفة عندهم ، بحيث لا يخرج عما ألفوه في نثرهم .

ولو كان ذلك شأن القرآن عندهم لما كان أحدهم إذا سمع آيَ القرآن اهتزت نفسه ، وكاد ينخلع قلبه مما يغشاه من روعة لا يعرف لها سبباً ، وكلام يعرضه على ما يعرفه من فنون الكلام فلا يجد له منها مثيلا ، فلا يجد إلا أن يخرّ ساجداً ويقول : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام ، إن عليه لحلاوة ، وإن له لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول بشر .

ولقد كان نثر العرب فى الجاهلية خُطَبا وأمثالا وحِكَما وأسجاعا ومحادثات ومناظرات ، وكان كل من هذا يجرى على أسلوبين : نثر مرسل أو سجع ملتزم فلما نزل القرآن لم يجر على مألوفهم فى ذلك ، بل جاء آيات وفواصل يشهد الذوق السليم بانتهاء الكلام عندها ، وتلك الآيات تارة تشبه السجع ، وتارة تشبه الموازنة ، وتارة لا تشبه هذا ولا ذاك ، فجاء نثره فريداً فى بابه ، مخالفاً لمــا اعتادوه فى فنون نثرهم .

أما قوله تعالى فى الآية — ٤ — من سورة إبراهيم (وما أرسلنا مِنْ رسولٍ إلاّ بلسانِ قومهِ) فلا يدل إلا على أن القرآن نزل بلغة العرب ليفهموه ويعقلوه ، ولا يدل على أنه جاء على صورة معروفة لهم فى نثرهم ، لأن نزوله على غير صورة معروفة لهم لا يؤدّى إلى عدم فهمهم لهــا ، لأن صور الكلام وأساليبه تتجدّد وتختلف باختلاف العصور ، ومع هــذا يفهمها أهل كل عصر عند ظهورها .

على أن العرب لا بُدّ أنهم لم يكن لهم نثر فنىّ قبــل ظهوره عندهم ، ولا شك أنهم فهموا النثر الفنىّ حين ظهر عنــدهم قبل نزول القرآن ، فلم لا يجوز أن يكون القرآن الكريم أول نثر فنى ظهر عندهم فلم يعسر عليهم فهمه ؟ ويكون شأنه فى هذا شأن أىّ نثر فنى ظهر فى

لغتهم ولم يكن مألوفاً عندهم ، وحينئذ لا يكون فى القرآن دلالة قاطعة على وجود نثر فنى قبله عند العرب . ولا يتم للأستاذ زكى مبارك ماأراده من إثبات وجود النثر الفنى عندهم بدليل قاطع .

ولا أدرى لم يذهب الأستاذ زكى مبارك إلى هذا القياس البعيد بين كلام الله تعالى وكلام البشر ؟ ولا أدرى لم لا يذهب إلى قياس قريب بين كلام البشر أنفسهم فى عصر نزول القرآن ؟ فقد كان أمامه خُطَب الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وخلفائه وكتبهم ونحوها ، وكان يمكنه أن يأخذ منها شاهداً على ذلك النثر الفنى الجاهلى ، فيعقد القياس فى ذلك بين كلام البشر ، ويترك كلام الله الذى جاء على غير ما يألفون بشهادتهم ، وكان هذا مقصوداً له ليتحدّاهم ويعجزهم ، ليبقى بمنأى عن الشُّبَه ، ولا نثير فى إعجازه شيئاً من الشك .

٢) رد على رد :

لم يشأ الأستاذ زكى مبارك أن يقتنع بمـا ذكرته من الأدلة على أن القرآن الكريم ليس من شواهد النثر الجاهلىّ ، فردّ علىّ بما يأتى :

أوّلا بأنه يدرس القرآن على أنه أثر أدبى بقطع النظر عن كونه كتاباً دينياً ، فهو يغضى فى بحثه له عن كونه كلام الله ، ثم يوازن بينه و بين ما سبقه أو عاصره أو جاء بعده من الأصول النثرية ، وهذا

هو الأساس فى الدرس العلمى ، وهو أيضا أوجه لأننا حين ندرس الأدب لا نخاطب المسلمين وحدهم ، وإنما نخاطب جميع الناطقين بالضاد من مسلمين وغيرهم ، ونحن بالطبع حين نعرض للقرآن لا نستطيع أن نحكم بأن الله عزّ شأنه كان من كتّاب العربية ، وهذه مسألة يكفى فيها التلميح .

وثانيا بأنه لا يستطيع أن يوافقنى على احتمال أن يكون القرآن أول نثر فنى فى اللغة العربية ، لأن اللغة لا تصل إلى مثل النثر الفنى الذى ظهر به فى القرآن إلا بعد تدرُّج يقتضى عدة قرون .

وثالثا بأن ما انفرد به القرآن من خصائص كان مما يتذوقه العرب فى أصول البلاغة ، ولم يكن إعجابهم به واتفاقهم على استجادته مما يرجع إلى الصور الإنشائية كما يُظَن ، وإنما يرجع إلى روحه ومعناه وما اشتمل عليه من فهم الغرائز والعقول .

ورابعا بأنه لا يوافقنى على قصر شواهد النثر الجاهلى على خطب الرسول وخطب أصحابه وكتبهم ، لأن هذا يمكن لو كانت كلها صحيحة ، ولكنه لا يخفى أن جزءا كبيرا من الأحاديث النبوية روى بالمعنى لا باللفظ ، والذى يهمنا هو الصور الكلامية لا الموضوعات التشريعية ، وكذلك خطب الصحابة وكتبهم تطرق اليها الشك من أزمان طويلة بسبب ما ألفه المتشيعون لهم من الاختلاق ، وهو يريد أن يبنى نظريته على نص لا يتطرق إليه الشك ، ولهذا اكتفى بالقرآن .

وإنى أحب أن أذكر قبل رَدّ هذا عليه أنه لم يتعرض إلا ذكرته من أن النثر الفنى الجاهلى ثابت بما روى من شواهده نفسه ، فلا حاجة لنا فى إثباته إلى تكلُّف عد القرآن من شواهده ، وهذه الشواهد من النثر الفنى الجاهلى قد رواها الثقات من علمائنا الأولين ، ولم يثر الشك فى روايتهم إلا بعض المتعصبين علينا من علماء أوروبا المشتغلين بدراسة اللغة العربية ، ومثل هذا التعصب لايصح أن يقام له وزن منا ، ولاأن يشككنا فيما رواه الثقات من علمائنا ، بعد أن مضى علينا مامضى من السنين الطوال ونحن نؤمن بروايتهم ، ولا نشك فى صدقهم وثقتهم وعدالتهم ، وإلا فعلينا وعلى تراثنا الدينى والعلمى والأدبى السلام .

وبعد هذا أرد على ماذكره أولا بأنى ذكرت ماذكرت من الفروق بين القرآن والنثر الفنى الجاهلى بقطع النظر عن كونه كلام الله تعالى ، فإنه مع هذه الفروق لا يصح أن يلحق النثر الفنى فى القرآن بالنثر الفنى الجاهلى ، كما لا يصح أن يلحق النثر الفنى فى العصر العباسى بالنثر الفنى فى العصر الأموى وما قبله من العصور ، لِماَ بينها من الفروق المعروفة ، بل إن الفروق بين القرآن والنثر الجاهلى أعظم وأهم .

وأرد على ماذكره ثانياً بتسليم أن اللغة لم تصل إلى ماوصلت اليه من فى القرآن إلا بعد تدرج يقتضى عدة قرون ، ولكن هذا شىء وكون القرآن من شواهد النثر الفنى الجاهلى شىء آخر ، على أن هذا لايمنع

أن يكون القرآن أول نثر فني متميز بخصائصه ظهر فيها ، و بالجملة فإثبات النثر الفني الجاهلي بالقرآن من جهة أن اللغة لا تصل إلى ما وصلت من الفن في القرآن إلا بعد تدرج يقتضي عدة قرون غير إثباته من جهة أنه لو كان أول نثر فني في اللغة العربية لما فهمه العرب . والاحتمال الذي ذكرته كان مبنيا على هذا ، وهو احتمال على كل حال .

وأرد على ماذكره ثالثا من أن ما تفرد به القرآن من خصائص كان مما يتذوقه العرب في أصول البلاغة بأن تذوقهم له لا يدنيه من نثرهم الفني ، ولا يجعله شاهدا من شواهده ، كما أن صاحب النثر الفني يتذوق الشعر ومع هذا لا يدني تذوقه له الشعر من النثر الفني ، لإن كلا منهما فن قائم برأسه .

وأما ماذكره من أن إعجابهم بالقرآن واتفاقهم على استجادته لم يكن يرجع إلى الصور الإنشائية ، وإنما كان يرجع إلى روحه وقوة معناه فأرجىء الرد عليه إلى الكلام معه في إعجاز القرآن ، وسيأتي قريبا .

وأرد على ماذكره رابعا من تطرق الشك إلى خطب الرسول وكتبه بعد تجويزهم رواية الحديث بالمعنى بأنه إسراف في استغلال هذه الرواية ، لأن أصحابه كانوا يتحرون رواية أحاديثه بلفظها أو بما يماثله فإذا شكوا مثلا في لفظ أو مرادفه لم يمنعهم من رواية ما يغلب على ظنهم .

منهما ، وإذا لم يذكروا لفظها وذكروا معناها لم يمنعهم من روايتها بلفظ مقارب له ، وكذلك خطب أصحابه وكتبهم ، وعلى كل يكفى فى الاستشهاد بها على وجود نثر فنى جاهلى رواية بعضها باللفظ ، وأن ما رُوِى منها بالمعنى حوكى فيه اللفظ بقدر الإمكان .

ولا أدرى بعد هذا كله قيمة لدلالة القرآن الكريم على وجود نثر فنى جاهلى مجهول أو مطعون فى صحته لأسباب يستند عليها من يطعن فيه ، فإنه لا يفيد فى إثبات النثر الفنى إلا البحث فى هذه الأسباب ، ليثبت بتفنيدها صحة ما ورد من نصوصه ، أما طريق الأستاذ زكى مبارك فإنه لا يفيد فى إثبات هذه النصوص بعينها ، وإنما يفيد فى إثباتها بالجملة لو سُلِّم له ، ولا قيمة لِمَا يفيده من إثباتها فى الجملة .

٣) رد على مناصر للأستاذ زكى مبارك :

ذكر الأستاذ عبد الستار نعيم بدار العلوم أن ما ذكرته فى ردّى على الأستاذ زكى مبارك لا يبلغ درجة اليقين ، ولا ينفى أن القرآن شاهد من شواهد النثر الجاهلى ، فهو يسلّم ما ذكرته فى شأن القرآن وإعجازه للعرب ، ولكنه يرى أن هذا لا ينافى أن يعطينا القرآن صورة للنثر الفنى الجاهلى ، وقد دعم دعواه بل دعوى الأستاذ زكى مبارك بما يأتى :

أولاً أن كل رسول بعثه الله بمعجزة من جنس ما اشتهر به من أرسل إليهم ، فعصا موسى كانت مناسبة لما اشتهر به قوم فرعون من السحر ، ومعجزة عيسى من إبراء الأكمه والأبرص كانت من جنس ما اشتهر في عصره من الطب ، وهكذا ، وحينئذ تكون معجزة القرآن من جنس صناعة الفصاحة التي اشتهر بها العرب ، حتى لا تختلف معجزته عن سُنّة غيرها من معجزات الرسل .

وثانياً أنه لا يعقل أن يتحدّاهم القرآن بما لا علم لهم به ، لأنه لا معنى لتحدّي شخص لآخر فيما يجهله ليعجزه فيه .

والجواب عن الأول أن معجزة كل رسول كانت مناسبة لما اشتهر به قومه لا على الوجه الذي ذكره ، وإلا كانت معجزة موسى من جنس السحر ، ومعجزة عيسى من جنس الطب ، ولا يوجد من يقول بذلك ، وحينئذ يكون القرآن أيضاً مناسباً لما اشتهر به العرب من الفصاحة ، ولا يقتضي هذا أن يكون من جنس شعرهم إلى الحد الذي يُعَدّ به شاهداً من شواهده .

والجواب عن الثاني أن يكفي في ذلك فهمهم لبعض وجوه الإعجاز في الجملة ، ولا يلزم فيه أن يحيطوا بكل وجوه الإعجاز ، لأنهم لو أحاطوا بها كلها لأمكنهم أن يأتوا بمثلها ، ولم يكن هناك إعجاز لهم بها .

٤) إعجاز القرآن عند الأستاذ زكي مبارك :

سبق أن القرآن الكريم عند الأستاذ زكي مبارك صورة عاثلة للنثر الجاهلي الفني، لأنه جاء عنده بلغته وتصوراته وتقاليده وتعابيره، ولمّا ألزمته بأن هذا يلزمه نفي الإعجاز عن القرآن تخلص منه بأن القرآن كان معجزاً بقوة روحه ومعناه لا بلفظه وأسلوبه، لأن الألفاظ في استطاعة جميع الناس، يجدونها حيث أرادوا في المعاجم والدواوين اللغوية، ولا يبقى موضعاً للجهد والعنت إلا المعاني والأغراض، ومن العبث أن يظن أن البلاغة لا تخرج عن المناورات اللفظية التي يذكرونها في علومها، فإن هذا إسراف في تقدير الزخرف اللفظي، واستهانة بصولة المعقول، فالقرآن عنده كان من حيث لفظه وأسلوبه من جنس كلام البشر، ولم يكن هناك فرق بينه وبين النثر الجاهلي الفني.

والأستاذ زكي مبارك يعتمد في هذا على مذهب ضعيف يرجع البلاغة إلى المعنى وحده لا إلى اللفظ، لأنه إسراف في تقدير جانب المعنى في البلاغة، وهناك مذهب ضعيف فيها يقابل هذا المذهب، ويسرف في إرجاع البلاغة إلى اللفظ وحده، ومن الغريب أنه يعتمد في هذا على مثل ما يعتمد عليه المذهب الأول، لأنه يرى أن المعاني مطروحة في الطريق، فيعرفها جميع الناس من عربي وأعجمي، وإنما الشأن عنده

لجودة اللفظ وصفائه وحسن سبكه ، ولا يخفى أن كلا من الفريقين يغالط الآخر فيما يزعمانه فى جانب المعنى واللفظ ، فقول الفريق الأول إن الألفاظ ملك لجميع الناس مثل قول الآخر إن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العربى وغيره ، وكلاهما إسراف فى جانب المعنى واللفظ ، والصحيح مذهب ثالث ذكره عبد القاهر فى كتابه — دلائل الإعجاز — وهو أن البلاغة ترجع إلى اللفظ والمعنى معاً ، وأن البلاغة فى اللفظ ليست زخرفاً كما ظن الأستاذ زكى مبارك ، وإنما هى فى حسن مطابقة اللفظ لمقتضى الحال ، وفى حسن دلالته على معناه ، وقد تكفل بالجانب الأول علم المعانى من علوم البلاغة ، وبالثانى علم البيان من علومها ، أما الزخرف اللفظى فليس له كبير وزن فى البلاغة ، وإنما هو من مكملاتها بشرط الاقتصاد فيه وعدم تكلفه ، وإلا كان مفسداً لها ولم يحسن فيها .

وبعد فلو سلمت للأستاذ زكى مبارك أن إعجاز القرآن يرجع إلى قوة روحه ومعناه لا إلى لفظه وأسلوبه لكان فى هذا ما يكفى لإخراج القرآن من النثر الجاهلى الفنى ، ولإبطال عده له صورة منه وشاهداً من شواهده ، لأن للدار فى إخراجه منه على كونه معجزاً ، ولا فرق فى هذا بين إرجاع إعجازه إلى جانب اللفظ أو إلى جانب المعنى . والله أعلم ؟

توجد أخطاء مطبعية قليلة يدركها القارىء

فهرس الكتاب